الاستعمار الفرنسي وسياسة الإبادة الرمزيّة في الجزائر
تقويض اللغة والدين وتفكيك الهويّات الثقافيّة

د. محمد بن علي[1]

الملخّص

يعدّ الاحتلال الفرنسي للجزائر حلقةً من حلقات الحروب الصليبية الدينيّة؛ لأنّ الحرب على الجزائر (على وجه الخصوص) أخذت بعدًا دينيًّا صرفًا، فالأهداف لم تنحصر في استغلال الثروات، بل تعدّت ذلك لتلبس ثوب القداسة والتمكين للمسيحيّة، ومحو وتشتيت معالم الوحدة الاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة للشعب المحتلّ، وسلّطت الفقر والجهل والتفرقة، على الأمّة الجزائريّة، فالجهل أفقدها الشعور بوجودها، والفقر أقعدها عن العمل، والتفرقة أذابت قوّتها وأفقدتها تماسكها؛ فبقيت تحت نير الظلم والتسلط والاستبداد.

ولم يكتفِ الاستعمار بالسلب والنهب والإبادة والسيطرة على مقدّرات الجزائر، بل تمادت الإدارة الفرنسيّة في مخطّطاتها لترسيخ دعائم الوجود الفرنسي وتمكينه. ولم يتأتَّ لها ذلك إلّا من خلال السيطرة المنظمة والواسعة عسكريًّا ومدنيًّا، لتأسيس قاعدةٍ إقليميةٍ وإداريّة، ثمّ تشجيع الهجرة الاستيطانيّة قصد بناء القاعدة الديموغرافيّة لتدعيم القوة العسكريّة، فتسهّل بذلك تدمَير البنية الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة للمجتمع الجزائري. وأوشكت المكيدة الاستعماريّة أنْ تصل مبتغاها لولا يقظة رجال الإصلاح والنهضة في الجزائر، الذين قاوموا المدّ الاستعماري، الساعي للقضاء على مرجعيتها الدينيّة والثقافيّة، وإلحاقها بالنمط الحضاريّ الغربي.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار، الجزائر، اللغة، الدين، رجال الإصلاح والنهضة.

---

١. أستاذ التعليم العالي، جامعة غليزان، الجزائر.

تمهيد

بقصد السيطرة على الجزائر ودمجها بفرنسا أرضًا وشعبًا، قامت السلطات الاستعماريّة في الجزائر بتطبيق سياساتٍ وأساليب متعدّدة، شملت الجانب العسكري والإداري والاقتصادي، الاجتماعي والثقافي. ومنذ البداية لم يغفل الاستعمار الفرنسي عن الدور الذي تؤدّيه المرجعيّات الرمزيّة في تماسك المجتمع الجزائري؛ ولهذا عمد إلى محاولة القضاء على هذه المرجعيّة التي تحول بينه وبين تدجين الجزائريين وجعلهم يقبلون بوجود المستعمِر. لقد جرى ذلك مجرى الواقع الفعلي، على الرغم من ادّعاءات القوة الغازية التي تعهّدت منذ أول يومٍ وطئت فيه أقدامها تراب الجزائر بأنْ «تبقى ممارسة الديانة المحمديّة حرّة، كما أنّه لا يقع أيّ اعتداءٍ على حريّة السكّان من جميع الطبقات، ولا على دينهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم، ونساؤهم سيُحترمن». كما جاء في نصّ معاهدة دي بورمون (معاهدة استسلام الداي حسين ٥ يوليو ١٨٣٠م).

من خلال هذا الاستهلال نحاول أنْ نتتبع مفصلاً الخطوط العريضة للسياسيّة الاستعماريّة المتّبعة للقضاء على هويّة ومرجعيّة المجتمع الجزائري، وإلحاقه بفرنسا.

الحياة الثقافيّة قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر

كانت الحياة الاجتماعيّة في الجزائر قبل الاحتلال - وعلى بساطتها - تتميّز بالتنوّع والثراء، يطبعها الطابع الإسلامي الذي يربط بين مختلف مكوّنات المجتمع، ويمدّهم بالحصانة، وهذا راجع لانتشار المساجد والزوايا في كلّ القطر الوطني، التي كانت تحت إشراف المؤسّسات الخيريّة، التي تضمن الإنفاق على الإيواء والإطعام، وبهذا وفّر نظام الوقف دعامةً صلبةً للوحدة الثقافيّة والاجتماعيّة في الجزائر. وبمقارنة أوضاع الجزائر قبل الاحتلال، نستنتج أنّ البنية الاجتماعيّة للجزائر في ظلّ السلطة العثمانيّة حافظت على معالمها وهويّتها المميّزة؛ لأنّ الأتراك أبقوا على البنية التي وجدوا عليها المجتمع، وعملوا على الاستفادة منها كما هي، واستمدوا منها قوّتهم.

صحيح أنّ الباحث في تاريخ الجزائر خلال الحقبة العثمانية، لا يكاد يعثر على معالم سياسةٍ تعليميّةٍ واضحة، إذ إنّ التعليم كان مرتبطًا بالأفراد والعائلات والمؤسّسات الخيريّة الحرّة، في حين ظلّ دور السلطة العثمانيّة هامشيًّا؛ كونها كانت تعتمد اللغة التركيّة لغةً رسميّةً لها، ولم تولِ عنايةً باللغة العربيّة وعلومها. وهنا برز دور المساجد والزوايا، التي كانت تُعلم اللغة العربيّة والقرآن والعلوم الشرعيّة، وشكّلت بذلك حاضنةً لتنشئة النشء تنشئةً عربيّةً إسلاميّة. غير أنّ هذا الدور لم

يسهم في بروز حركةٍ فكريةٍ تجديديّةٍ خلال فترة الحكم العثماني[١]، فقد بقي التعليم تقليديًّا، يعتمد التلقين والتقليد والاتباع، رغم بروز بعض المشايخ والعلماء الذين احتلوا مكانةً مرموقةً وحضورًا لافتًا بين أقرانهم مثل أبي راس الناصري[٢].

بينما عمل الاستعمار الغربي منذ اللحظة الأولى للاحتلال على تحطيم معالم البنية الاجتماعيّة، وطمس معالم الهويّة الثقافيّة والدينيّة للفرد الجزائري؛ إذ تؤكّد المراجع التاريخيّة أنّ المجتمع الجزائري، لم يكن بالشكل الدرامي الذي وصفته به الإدارة الاستعماريّة، بناءً على توصياتٍ استشراقيّةٍ؛ فقد كانت المدارس بالجزائر والمدن الداخليّة منتشرةً بشكلٍ كامل، ومجهّزةً بشكلٍ جيّد، وكانت ممارسة التعليم فيها تتم بحريّةٍ تامّة دون تدخّل الإدارة العثمانيّة وبشكلٍ مجاني، فالزوايا كانت مؤسّساتٍ قائمةً بذاتها، مستقلةً في ذّمتها الماليّة وملكيّة أراضيها، التي تنفق من إنتاجها على الطلبة وأجور المعلّمين. ونظرًا لهذه الهيكلة والتنظيم والاستقلالية، أصبحت الزوايا في مرمى سهام الإدارة الاستعماريّة التي رأت فيها خطرًا داهمًا، ومؤسّسةً لتخريج المناوئين لسياستها. وما هي إلّا سنوات قليلة بعد الاحتلالّ حتى اختفت العديد من الزوايا، وتّم السطو على ممتلكاتها، ومصادرة الأراضي التي كانت تمثّل المورد الرئيس للإنفاق على التعليم، وإيواء الطلبة، ودفع أجور المعلّمين.

السياسة الاستعماريّة الفرنسيّة في الجزائر

يقول المستشرق الفرنسي روبير منتران (Mantran, Robert ١٩١٧-١٩٩٩) متحدّثًا عن بدايات الاهتمام بالشرق من طرف الإمبراطوريّة الفرنسيّة: «عرف فرانسوا الأول كيف يَتَفهَم ضرورة الاطلاع على العالَم التركي وفوائد التعرّف عليه، وعلى العالَم العربي الإسلامي بشكلٍ أعم، وفي ضوء عقد معاهدة مع السلطان سليمان القانوني، ثمّ التشجيع على التعرّف على العالَم التركي باستحداث أمرين في غاية الأهمية: إنشاء الكليّة الملكيّة أولاً، وإنشاء المكتبة الوطنيّة ثانيًا»[٣].

---

١. بينارد، شيريل، الإسلام الديمقراطي المدني، ص ٢٥.

٢. هو محمد أبو راس الناصري المعسكري الجزائري (١٧٣٧- ١٨٢٣)، من أهم مؤلفاته: -الإصابة فيمن غزا المغرب من الصحابة -الحلل السندسية في شأن وهران والجزر الأندلسية - زهر الشماريخ في علم التاريخ - فتح الإله ومنّته في التحدّث بفضل ربيّ ونعمته - لقطة العجلان في شرف الشيخ عبد القادر بن زيان. نبأ الإيوان بجمع الديوان في صلحاء مدينة القيروان - الدرة الأنيقة في شرح العقيقة

٣. نصري، أحمد، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن، ص٢٤.

وهذا ما يبيّن أنّ الاستعماري الأوربي لم ييأس بعد هزيمته في الحروب الصليبيّة من العودة إلى احتلال بلاد العرب، وسائر بلاد المسلمين، فاتّجهوا لدراسة هذه البلاد، في كلّ شؤونها: من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ولغات وتاريخ، وغير ذلك ممّا يتعلّق بها من جغرافيّة وسكّان، بغية أنْ يتعرّفوا على مَوَاطنْ القوّة فيها، فيُضْعفُوهَا، وإلى مَواطنْ الضعف فيَغْتَنمُوهاَ. ثم لمَّا تمَّ لهم الاستيلاء العسكري والسيطرة السياسيّة، كان من دوافع الدراسات الاستشراقيّة الرغبة بإضعاف المقاومة الروحيّة والمعنويّة في نفوس المسلمين، وبثّ الوهن والارتباك في تفكيرهم[١].

يمثّل العقد الأخير من القرن١٨م الانطلاقة الحقيقيّة للدراسات الشرقيّة بفرنسا، وهو جهد علماء رافقوا حملة نابوليون على مصر؛ فالاستشراق مرتبطٌ ارتباطًا صريحًا باستعمار واحتلال الدول، "وكلّما توسّع الاستعمار وتثبّتت أقدامه كلّما زاد اعتماده على الاستشراق كمؤسسة تابعة له، تسانده في إدارة الشرق الإسلامي، وتسهّل له إخضاعه". وبخاصّة الاستعمار البريطاني والفرنسي. و»بولادة القرن العشرين، ظهر تحوّلٌ في الاستشراق الفرنسي، فقد سمح إنشاء المدرسة العلميّة (التطبيقيّة) للدراسات العليا في باريس، بتجديد المواد المتفرّعة والمتخصّصة، لا سيّما الدراسات الاستشراقيّة»[٢].

وبالعودة لمعالم الحملة الفرنسيّة على الجزائر نستحضر أسلوب المراوغة الذي انتهجته إدارة الاحتلال في معاملة ضحاياها، فعندما أراد نابليون أنْ يدخل مصر، استدعى خطابًا تخديرًا، يُظهرُهُ في ثوبه المُخلِّص المنتظَر وليس الغازي المتسلِّط على طريقة الحروب الكلاسيكيّة، فلجأ من أجل تحقيق أهدافه التوسّعية، الاستعماريّة إلى وسيلة ذكيّة، اعتمدت أسلوب المودّة والمساعدة والمداهنة؛ فمن جهة المودّة أظهر في أكثر من مناسبة أنّه لم يأتِ مصر إلّا لإنقاذها من المماليك الجهلة، ولتعريفها بنظم الحياة الجديدة. ومن جهة المداهنة، تصنّع الإسلام، وادّعى أنّه يقوم بأحكامه الدنيويّة والأخرويّة، ويحترم السلطان العثماني - خليفة المسلمين - ويطمح إلى تخليص البلاد من حكم المماليك وتسليمها إلى المصرين؛ ولهذه الأسباب وغيرها، جهَّز حملةً وزوّدها بمختلف أدوات النهضة، فقد اصطحب في حملته فريقًا من علماء فرنسا ونوابغها في الرياضيّات والهندسة والجغرافيا والفلسفة والطب والأثار، وجماعة من الرسّامين والموسيقيين والمصوّرين وغيرهم من

١. الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ص٣٥٤.

٢. نصري أحمد، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن، ص٣٠.

رجال العلوم والآداب[١]. وأنشأ الفرنسيّون أيضًا دورًا للبحوث العلميّة والنقش والتصوير، وأسّسوا مكتبةً عامةً، فرنسيّةً وعربيّة، جمعت معظم الكتب العربيّة من مساجد مصر، والكتب الفرنسيّة منها، أحضرها نابليون نفسه مع الحملة، وكان القائمون بأمرها يرحّبون بمن يدخلها من المصريين[٢].

عند مراجعة أسلوب المراوغة المتّبع في إقناع المصريّين بجدوى الاحتلال، وأنّ فرنسا ليست عدوّة، وإنّما هي صديق جاء يفيض إنسانيةً وعدلاً ورحمة، جاء لينقذ السكّان الأصليين من محتليّهم، ويعيد لهم عزّهم وكرامتهم. نجد أنّ ما جاء في المنشور الذي وزّعه الفرنسيّون عشيّة بداية احتلال الجزائر، لا يكاد يخرج عن هذه السياسة، حيث جاء في محتواه: «إنّنا نحن أصدقاؤكم الفرنسيّون نتوجّه الآن نحو مدينة الجزائر، إنّنا ذاهبون لكي نطرد الأتراك من هناك، إنّ الأتراك هم أعداؤكم وطغاتكم الذين يتجبّرون عليكم ويضطهدونكم، والذين يسرقون أملاككم وإنتاج أرضكم، والذين يهدّدون حياتكم باستمرار، إنّنا لن نأخذ المدينة منهم لكي نكون سادةً عليها. إنّنا نقسم على ذلك بدمائنا وإذا انضممتم إلينا، وإذا برهنتم على أنّكم جديرون بحمايتنا فسيكون الحكم في أيديكم كما كان في السابق، وستكونون سادةً مستقلين على وطنكم.

إنّ الفرنسيّين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين، إخوانكم الأعزّاء، الذين لم يفتأوا يفكّرون فينا، ويتأسفون على فراقنا طيلة الثلاثين سنة الماضية، منذ خرجنا من بلادهم، والذين ما يزالون يرسلون أبناءهم إلى فرنسا يتعلّمون القراءة والكتابة، ولكلّ فنٍ وحرفةٍ مفيدة، ونحن نعدكم باحترام نقودكم وبضائعكم ودينكم المقدّس؛ لأنّ ملك فرنسا المعظّم حامي وطننا المحبوب، يحمي كلّ دين. فإذا كنتم لا تثقون في كلمتنا وفي قوّة سلاحنا، فابتعدوا عن طريقنا ولا تنضموا إلى الأتراك الذين هم أعداؤنا وأعداؤكم، فابقوا هادئين. إنّ الفرنسيّين ليسوا في حاجةٍ إلى مساعدةٍ لضرب وطرد الأتراك، إنّ الفرنسيين سيظلّون أصدقاءكم المخلصين؛ فتعالوا إلينا، وسنكون مسرورين بكم، وسيكون ذلك فرصة لكم»[٣].

لكن شتّان بين القول والفعل؛ لأنّ فرنسا وبمجرد أنْ وطئت أقدامها أرض الجزائر، أظهرت وجهها القبيح، واعتمدت أسلوب الأرض المحروقة؛ لأنّ المحتل أدرك أنّه لا يكفي هزيمة أمةٍ للتمكّن من حكمها، فما كان منه إلّا الاستفراد بالسكّان الأصليين بعد أنْ طرد الأتراك، وحملهم في

١. معاليقي، منذر، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، ص٥٥.

٢. المرجع نفسه، ص٥٦.

٣. زوز، عبد الحميد، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٠٠)، ص٢٦.

السفن إلى الشواطئ الآسيويّة. وحتى يزيل المحتلّ كلّ آثار حكم الأتراك في الجزائر، قام «بتمزيق أو حرق كلّ الوثائق المكتوبة والسجلاّت الإداريّة، وكلّ القطع الأصليّة وغيرها، ممّا كان بإمكانه أنْ يخلّد أثر ما كان قبل الاحتلال...وعمدوا بعدها إلى هدم الشوارع وإعادة إنشائها»[١] على النمط الأوروبي، وأعطوا أسماءً فرنسيّةً لما أبقوّه قائمًا منها. وكلّ خطوةٍ كانت مصحوبةً بارتكاب أبشع الفظائع، التي كانت تنفّذ بنرجسيّةٍ تُعبّر عن سلوكٍ مُرْضٍ متعطشٍ للدمار، وإحداث أكبر قدرٍ من الخراب. ومن ذلك نذكر ما قاله القائد سانت آرنو (١٧٩٨-١٨٥٤)، وهو يتلذّذ بوصف الفظاعات التي ارتكبوها في حقّ الإنسان والحيوان. يقول: «إنّك تركتني في قبيلة البَرَاز، حرقتهم كلّهم، وأتيت على الأخضر واليابس، واليوم أنا في قبيلة بني شويد، فأتيت فيها على الزرع والضرع». وفي رسالةٍ أخرى من دي مونتانياك إلى الجنرال (لاموريسير): «طلبت منّي في مقطعٍ من رسالتك أنْ أخبرك عن مصير النساء اللواتي نسبيهنّ، إنّنا نحتفظ بالبعض منهنّ رهائن، ونبادل بالبعض الآخر منهنّ للحصول على الجيّاد، والبقية للبيع بالمزايدة مثل الدواب لأفراد الجيش»[٢].

هذا ما يبيّن كيف أنّ السياسية الاستيطانية «عمدت إلى تفريغ الأرض من أهلها واستباحة العقل الجزائري، وتفريغه من كل مقوّماته، التي كانت تحافظ على شخصيّته الإسلاميّة، فبعد أنْ كانت الجزائر قبل ١٨٣٠ مدرسة قلّ من لا يطلب فيها العلم، حتى إنّ البلدة الواحدة كان فيها مدرستان للذكور والإناث[٣]، بالإضافة للمساجد والزوايا، التي كانت تقوم بدورها التربوي بالموازاة مع دورها في إصلاح الخصومات والمحافظة على قيّم ومبادئ الشخصيّة الجزائريّة.

تزامن الاحتلال الاستيطاني للجزائر مع توسّع المركزيّة الأوروبيّة في بدايات القرن١٩م، ومشروعها الرامي للهيمنة على الآخر المختلف (المتخلّف) وفق المقاربة التطوريّة، التي تُلصق صفة التوحّش والهمجيّة بالمجتمعات البدائية، وتجعل المجتمعات الغربيّة هي الأكثر تحضّرًا وتقدّمًا، وهذا الطرح ما هو إلاّ تعميق لصورة التمركز الغربي، القائم على أساس التفاوت بين الغرب الأسمى والأرفع ثقافيًّا وعقليًّا وحضاريًّا، وباقي شعوب العالم التي ميزتها الحظّ الأقلّ من كلّ ما سبق، وبهذا أصبح الغرب يتربع على قمّة كلّ شيء، وبوصلة كلّ المجتمعات التي تريد أنْ تشقّ طريقها في مسار التحضّر. طريق لا يمكنها السير فيه إلاّ بمساعدة الغرب المتحضّر، الذي

١. دو توكفيل، نصوص عن الجزائر، ص١٦.

٢. الأشرف، مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ص٣٣٤.

٣. بوشيخي، شيخ، الحركة الوطنية والثورة الجزائريّة (١٩٥٤-١٩٦٢)، ص٥١.

حمل لواء تَمْدين العالم غير الأوربي وإدماجه في صلب الحضارة، وتصحيح مساره التاريخي، بما أنّ العالم غير الأوربي (الآسيوي والإفريقي خصوصًا) ما زالت شعوبه قاصرةً، ولم تبلغ سنّ الرشد الحضاري والعقلي، وعاجزةً عن إنجاز المهام الحضارية بمفردها.

كان الغرب بمنزلة المدينة المثال التي يجب أنْ نشيّد على منوالها مدننا، دون قلق أو خوف، فهي مدينة الحريّة والتقدم والمساواة. لكن هذه الصورة الجميلة سرعان ما تَلْبس حلّةً مغايرة، كشفت زيف الغرب وتناقضه، فالغرب في صورته الاستعماريّة ليس سوى لصٍّ كذّاب خاطف للأرزاق، لا وفاء ولا عهد ولا ذمة له، إذ لم يمد يَده للدولة العثمانيّة إلّا لنهبها. فالأوروبيّون أصبح همهم تعداد ما عندهم من عدّة الفتك والذبح، فيقولون عندنا كذا من الكتائب والفيالق، وكذا من المدافع والبنادق، ولنا بوارج للهدّ والهدم، وأبراج للصدّ والصدم، فيا ليت شعري ماذا أقول عن تمدّنٍ أصبح فيه سفك الدماء أهون من سكب الماء! «بئس التمدن الذي به قد أصبح الإنسان وهو على شأن الإنسانية أوحش الوحوش وأفظع الحيوانات، بل صار يجب عليه أنْ يتّخذ الوحوش الغازية نموذجًا له في سلاستها وأناستها عندما تكن آمنة في أغوارها وراقدةً في أوكارها»[1].

مستندةً إلى عقدة التفوّق ومركزيّة الجنس الأوربي (الأبيض) عاملت السلطات الاستيطانيّة الجزائريين، وكأنّهم ما دون البشر، وأنّ المستعمرين ذوو حقٍّ إلهي، وأنّ السكّان الأصليّين هم ما دون البشر، وهكذا يجعل الاستغلال، المُستغَلْ تابعًا المُسْتَغِلٌّ. إنّ هذه التبعيّة، هي في صميم النزعة العنصريّة، التي تجعل الأوروبي يرى نفسه أفضل من المسلم الذي لا يعدو كونه آلةً أو يدًا عاملةً رخيصةً لا غنى عنها. ولا ترتقي لدرجة الإنسانيّة؛ لأنّ «المسلمين إذا شعروا بإنسانيتهم كسروا عصى الطاعة، وخرجوا من التبعيّة. ولإبقاء الوضع على ما هو عليه يجب أنْ يذلّوا، وأنْ تنتزع العزّة من قلوبهم، وأنْ يدفعوا الى صفوف البهيمة، سيترك للأجساد أنْ تعيش، ولكن لا بدّ من قتل النفوس...فليس في الجزائر مكان لجنسين»[2].

(عادت المسيحيّة من جديدٍ للاستحواذ على بلدٍ كانت من قبل مزدهرةً به)، بهذه الكلمات دشّنت فرنسا الاستعماريّة احتلالها للجزائر، ومنطوق العبارة لا يحتاج إلى تأويلٍ لكشف خبايا المعاني المضمرة. فالحملة الفرنسيّة على الجزائر، لم تكن حملةً استعماريّةً استيطانيّةً بالمفهوم الاعتيادي، بل كانت روافدها تتغذّى من مرجعيّةٍ مسيحيّةٍ ترتكّز على المعتقد الصليبي في كلّ

١. مجدي، فارح، مقالة بعنوان الحرية والتمدن في فكر فرنسيس مراش، ص٤٦.

٢. سارتر، ج.ب، الاستعمار الجديد، ص٦٧.

توجهاتها، فحتّى ولو كان المظهر المادي يطغى على أهداف الحملة الاستعماريّة؛ فذلك ما كان ليتم لولا اتّكَائه على نداء الصليب، الذي كان ولا يزال يُحرك السرديّة الغربيّة في تعاملها مع الشرق الإسلامي، وهذا ما عبّر عنه أحد المتحمّسين للسرديّة الكنسية بقوله: «إنّ حربنا في الجزائر أسمى وأشرف من كلّ ما طمحت إليه حروبنا الأوربيّة؛ ذلك أنّها تتعلّق بقضيّة الحضارة المقدّسة، القضيّة الخالدة للفكر المسيحي، الذي وعده الإله بمملكة العالم، وأَوكلت العناية الإلهيّة شرف القيام بعمله للعبقريّة الفرنسيّة»[١].

وهذا ما يفسّر الخطاب الحماسي الذي وُجّهَ لرجال الدين المسيحي[٢]، الذين رافقوا الحملة على لسان الجنرال دوبورمون (: de Bourmont ١٧٧٣ – ١٨٤٦): « لقد جئتم لتعيدوا معنا فتح باب المسيحيّة في إفريقيا، إنّنا نأمل أنْ تعود إليها (يقصد المسيحيّة) قريبًا لتعمل من جديدٍ على ازدهار المدينة التي انطفأت»[٣]. ولم تقف طموحات السياسة الفرنسيّة وقساوستهم عند هذا الحد؛ بل رأت في مشروعها أداةً لتمدين الجزائريّين وجعلهم مسيحيّين. وما جاء على لسان وزير الحرب كليرمون تونير Clérmont-Tonnérre في تقريرٍ إلى الحكومة في ١٨٢٧/١٠/١٤، يظهر أنّ حادثة القنصل (دوفال) لم تكن إلاّ مطيّةً لغزو الجزائر، تَمْكينًا للمسيحيّة - حتى وإنْ كان ذلك تحت غطاء ردّ الاعتبار لهيبة فرنسا وملكها يقول: «إنّ العناية الإلهيّة قد سمحت بأنْ تستثار جلالتكم في شخص قنصلكم، من طرف أعتى أعداء المسيحيّة (يقصد الداي حسين)؛ لذلك سيّدي، فإنّ العناية تدعو لأغراض خاصة للانتقام في نفس الوقت للدين وللإنسانيّة من سُباب الداي...وسوف نكون سعداء بمرور الزمن، ونحن نحضّر الجزائريين، بتصييرهم مسيحيين»[٤].

١. الحاكم بن عون، محمد، المسألة الدينيّة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠-١٩٥٤)، ص٢٥.

٢. ركزّ الاستشراق الحربي الاستخباراتي على أساليب تهدف لتحقيق أكبر قدرٍ من الاختراق للآخر، من خلال العمل على تكوين مستشرقين ضليعين بثقافة الآخر وعادات وتقاليده وديانته...الخ. «تكوين أفراد (يزرعون داخل الجسم الاجتماعي للآخر) لا يختلف شكلهم ومظهرهم ولباسهم عن المألوف بالنسبة لمن يشاركوهم، يتقنون اللغة العربيّة، ويحفظون القرآن، ويعرفون السنّة، وقادرين على مخاطبة الأهالي بلغتهم، يدخلون لمساجدهم ويشاركونهم شعائرهم، وإذا استلزم الأمر يقدّمون دروسًا ومواعظ في مساجدهم، وإسماعهم ما يريدون أنْ يسمعوا من جهة، واكتساب مساحةٍ في قلوبهم، حتى يسهل عليهم بعد ذلك تمرير رسائلهم بصورةٍ تدريجيةٍ تطول أو تقصر، حسب الغايات المرسومة لتحقيق أهداف التغلغل، خدمة للمشروع الاستعماري».

٣. شاوش، حباسي، مظاهر الروح الصليبيّة للاستعمار الفرنسي بالجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢)، ص١٢. انظر كذلك: الحاكم بن عون، محمد، المسألة الدينيّة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، ص٢٧.

٤. شاوش، حباسي، مظاهر الروح الصليبية للاستعمار الفرنسي بالجزائر، ص١١؛ بلاح، بشير، تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٥٤)، ٥٠١١.

من أجل التمكين لهذا الغرض عمد الاحتلال الى انتهاج سياسةٍ تعليميّة، تعتمد على التجهيل والفرنسة والإدماج والتغريب، والعزل القسري للمقومات الحضاريّة للتراث العربي الإسلامي في الجزائر، وتغيير الهويّة الثقافيّة السائدة. حتى تكون الجزائر فرنسيّةً في كلّ شيء، وتنسى ذاكرتها، وجسور اتصالها بالماضي دفعةً واحدةً وإلى الأبد. وفي هذا السياق، تم الاستيلاء على مراكز الثقافة العربيّة والإسلاميّة من مساجد ومدارس وزوايا، وتحويلها إلى مراكز للثقافة الفرنسيّة وللهيئات التبشيريّة المسيحيّة، أو إلى ثكناتٍ وإسطبلاتٍ ومتاجر؛ لأنّ هذه المراكز هي التي كانت تحتضن التعليم التقليدي في الجزائر، فلاقت الأوقاف الإسلامية المصير نفسه، الذي لقيته المؤسسات الإسلامية الأخرى، والتي كانت تموّلها وتمنحها الديمومة والاستقرار[1]. كونها تمثّل عصب المنظومة الرمزيّة التي يتحرّك ضمنها المسلم، وهي المؤطّر للممارسات الاجتماعيّة والثقافيّة، وأماكن لإنتاج وتكثيف وحفظ ذاكرة الأمة؛ وهذا ما جعل الإدارة الاستيطانية تضعها في صدارة سلّم أولوياتها؛ لأنّ الاستعمار أدرك من الوهلة الأولى خطورة دور الدين الإسلامي[2] في المحافظة على معالم الهويّة الجزائريّة من جهة، ودوره في إفشال مخططات السيطرة على البلد من جهةٍ أخرى.

أدرك قادة الاحتلال أنّ الثقافة العربيّة الإسلاميّة هي العائق الرئيس أمام تجسيد خططه؛ ولهذا وجب تجريد الشعب الجزائري منها، وطمس معالمها ومسخها وصّبها في قوالب تلائم أهدافه، ومخططاته لتضمن لوجوده البقاء. ولسان حالهم يقول: إنّنا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلّمون اللغة العربيّة، فيجب أنْ نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم.

---

١. بشير، فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان. دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، ٦١١١.

٢. وقفت الحركات التبشيرية التنصيريّة على نتيجة مفادها «أنّ الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق التبشير بالنصرانيّة في إفريقية، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا،؛ لأنّ انتشار الإنجيل لا يجد معارضًا لا من جهل السكّان ولا من وثنيتهم، ولا من مناضلة الأمم المسيحيّة وغير المسيحية، وليس خصمنا هو العربي الذي يرتاد البلاد للاتّجار بالرقيق، بل إنّ هذا الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ في أفريقية...فالشيخ والدرويش(..) يبثّان في الأهالي أنّ المهدي منتظر ظهوره وسينتصر الإسلام. انظر: لوشاتليه، ألفريد، الغارة على العالم الإسلامي، ص٣٥-٣٦.

ولهذا كتب الفريد شاتليه عن إرساليات التبشير البروتستانتيّة قائلًا: «ينبغي لفرنسا أنْ يكون عملها في الشرق مبنيًّا قبل كلّ شيءٍ على قواعد التربية العقليّة، ليتسنّى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبّت من فائدته...ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلاّ بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسيّة...وأنا أرجو أنْ يَخْرُج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبثّ في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسيّة». المصدر نفسه، ص١٣، ١٤.

فما كان عليه إلّا البدء في مشروع إزالة ومحو كلّ المعالم التي تعرقل مشاريعه، بتشجيع حركات التنصير تمكينًا للمسيحيّة في وسط الجزائريين، ولسان حالهم يقول: «إنّ المسلمين إذا اعتنقوا الدين المسيحي فإنّهم سيُظْهرُون لنا الطاعة، ويصبحون إخوانًا لنا. والأخوّة هنا تشير إلى الطاعة والخضوع، والقبول بالأمر الواقع، بالتالي نجاح عملية تحويل الجزائر إلى مستعمرةٍ فرنسيّة، يستبدلّ فيها الهلال بالصليب والإسلام بالمسيحيّة. وفي سبيل ذلك لم تسمح الإدارة الاستيطانيّة بتعليمٍ يَخْرج عن أطروحاتها، بل وضعت شتّى صنوف العقبات في طريق المدارس التقليديّة؛ تمهيدًا للمسخ الثقافي والديني واللغوي للجزائريين. فوجد نتيجة ذلك «قطرٌ قريبٌ من الفناء، ليست له مدارسُ تعلّمه، ليس له رجالٌ يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان اضطرابًا دائمًا ومستمرًا، كان أبناؤه لا يذهبون إلّا إلى المدارس الأجنبيّة التي لا تعطيه من العلم إلّا الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم»[١].

وما هي إلّا سنوات حتى أصبحت الجزائر- كما قال المناضل المصري محمد فريد[٢] - «وليس فيها من المدرّسين بالجوامع إلّا ما يُعدّ على الأصابع، وقلّ الطالب والمطلوب وهُجرت ربوع العلم، وخُرّبت دُور الكتب، وصارت الديّار مرتعًا للجهلاء، وكادت تندثر اللغة العربيّة الفصحى، وباختصار فحالة التعليم بالقطر الجزائري سيئةٌ جدًا، ولو استمرّ الحال على هذا المنوال لحلّت اللغة الفرنسيّة محلّ اللغة العربيّة في جميع المعاملات، بل ربما تندثر اللغة العربيّة مع مرور الزمن، فلا الحكومة تسعى في حفظها، ولا تدع الأهالي يؤلّفون جمعيّاتٍ لفتح المدارس، لمنعها أيّ اجتماعٍ خوفًا من أنْ تشتغل جمعيّاتهم بالأمور السياسيّة»[٣].

١. عماد، لبيد، المحاولات الفرنسيّة لطمس الهويّة الجزائريّة إبّان الاحتلال (١٨٣٠-١٩٦٢)، ص١٢.

٢. محمد، فريد، واحد من كبار الزعماء الوطنيين المصريين أوائل القرن العشرين، تولّى رئاسة الحزب الوطني عقب وفاة مصطفى كامل، أنفق ثروته في سبيل النضال الوطني والكفاح ضد الاحتلال. ولد عام ١٨٦٨م من أسرةٍ تركية، تعلّم في مدرستي الألسن والحقوق، وبعد تخرّجه عمل في نيابة الاستئناف، ثم احترف مهنة المحاماة. تجسّدت ميوله الفكريّة والثقافيّة في عديد المؤلّفات، منها: كتاب (من مصر إلى مصر). وكتاب (رحلة إلى بلاد الأندلس ومراكش والجزائر)، وكتاب (تاريخ الرومانيين)، وكتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية). توفيّ في برلين سنة ١٩١٩م

٣. بشير، فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان، دراسة تاريخيّة وفكريّة مقارنة.

السياسة الفرنسيّة المتبعة في تفكيك الهويّة الجزائريّة في ظل حركة الاستيطان[١]

الاستعمار في تعريفه الكلاسيكي يعني قيام دولةٍ ما بالسيطرة الكاملة على دولةٍ أخرى واستغلال خيراتها، لتصبح جزءًا من الدولة المستعمِرة، فاقدةً للسيادة على إقليمها داخليًّا وخارجيًّا، وتنقلب إلى إقليمٍ تابعٍ للمستعمِر الجديد. والملاحظ أنّ الاستعمار التقليدي قد اعتمد على الاحتلال العسكري المباشر لتحقيق أهدافه، وعمل على نهب الثروات الطبيعيّة للأقاليم المستعمرة، بالإضافة لتشويه معالم البنية الاجتماعيّة والثقافيّة للسكّان الأصليين، من خلال عمله على إحلال لغته وديانته مكان قيّم وثقافة ودين الأهالي. ولسان حالهم يقول: «إنّنا قد جعلنا المجتمع الجزائر أكثر شقاءً وبربريّةً ممّا كان عليه قبل أنْ يعرفنا، لقد طالت أيادينا تلك المؤسّسات (الوقف) حيثما وجدت، لتُحوَّل في قسمها الأكبر عن المهام المنوطة بها، فقمنا بتقليص المنشآت الخيريّة، وتخلينا عن المدارس وشتتنا المتعلّمين. لقد انطفأت الأنوار من حولنا...أي إنّنا جعلنا المجتمع الجزائري أكثر بؤسًا وجهلاً وهمجيّةً ممّا كان عليه قبل أنْ يعرفنا»[٢].

وبموجب هذه الرؤية الاستيطانية المدثّرة برداء الصليبيّة، وضعت الإدارة الاستعماريّة يدها على كلّ الأملاك الدينيّة، في محاولةٍ للقضاء على كلّ الروافد التي تمدّ الجزائري بمقوّماته وتحافظ على هويّته، التي كانت تستعصي على الترويض بالأساليب العسكريّة الكلاسيكيّة، فما كان عليه إلّا نهج أسلوب الغرس الثقافي عن طريق جملةٍ من القوانين، وانتظار النتائج دون استعجال. كما عبّر عن ذلك ألبرت هوغوس:»إنّ استبدال قانون الأحوال الشخصيّة بالقانون المدني الفرنسي سيأتي مع الزمن، سيحدث ذلك دون شعورٍ بتحوّل الأفكار والعادات والوصول الى إدخال الأفكار الفرنسيّة في أذهان المسلمين»[٣].

بناءً على هذا النمط الاستعماري، شهدت الجزائر عقب الاحتلال الفرنسي تحولاتٍ اجتماعيّةً جذريّةً مسّت بنية المجتمع الجزائري وتركيبته، وتعدّى هذا التأثير إلى علاقاته الداخليّة وقيّمه، إذ أدّت هذه التحوّلات بمرور الوقت الى إحداث تغييرٍ نحو اتجاهٍ مرغوب، أريد له أنْ يعيد تشكيل

---

١. الاحتلال الاستيطاني من أخطر وأسوأ أنواع السيطرة الاستعماريّة، وهو يعني تشجيع هجرة المعمرين نحو بلدٍ معيّنٍ بهدف توطينهم بصفةٍ نهائيةٍ في المستعمرة، وفي المقابل القضاء على السكّان الأصليين كما هو الحال بالنسبة للكيان الصهيوني بفلسطين المحتلة، وكذلك تشجيع الهجرة الأوروبيّة نحو العالم الجديد وإحلالهم محلّ السكّان الأصليين الهنود الحمر، وتشجيع الهجرة الأوروبيّة نحو الجزائر، أو نحو أستراليا بهدف الاستعمار والاستيطان.

٢. الحاكم، بن عون، محمد، المسألة الدينيّة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠-١٩٥٤)، ص٥٧.

٣.المصدر نفسه، ص٦٢.

تراتبيّةٍ اجتماعيّة، وتبدّل على مستوى البنية والتنظيم الاجتماعي للمجتمع الجزائر بصفةٍ تدريجيّة، حيث ساءت الأوضاع الاجتماعيّة للجزائريين، وانتشرت البطالة وارتفعت نسبة الإجرام، وتفشت الآفات الاجتماعيّة، نتيجةً للجهل والأميّة التي انتشرت بين السكّان. ولم تكتفِ الإدارة الاستعماريّة بفتح بيوت الدعارة وسط الأحياء الشعبيّة، بل تعمّدت فتحها بجوار المساجد في سلوكٍ استفزازيّ لحرمات أماكن العبادة ولمشاعر المسلمين.

سوَّقت السرديّة الاستعماريّة، التي وثّقت للمشروع الاستعماري الغربي، لأطروحة عذريّة المشاريع الاستعماريّة، وكيف جلبت التقدّم لمجتمعات شمال أفريقيا، منقذةً إيّاها من الخرافات والجهل والتخلّف. ومن هذه الناحية وصفت الثورات الشعبيّة ضدّ المحتلّ بأنّها معاديةٌ للتقدّم. وبناءً على هذه الرؤية أعطت فرنسا لنفسها الحقّ في إعادة تشكيل المجتمعات وقولبتها على درب التقدّم حتى وإنْ صاحب ذلك ممارسة العنف واستخدام التطهير العرقي لتغير تركيبة المجتمع!

فقد أدّت عمليات مصادرة الأملاك والاستيلاء على الأراضي، وتهجير السكّان إلى تدمير النظام الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الجزائري، وتفكيك النظام القبلي القائم على التعاون والتضامن، واستبداله بالملكيّة الفرديّة، التي رأى فيها المحتلّ عاملاً أساسيًّا يسهّل عليه عمليّة السيطرة على المجتمع الجزائري، وهذا ما ورد في إحدى التوصيات المنشورة: « يجب أنْ نُرسّخ في وجدان المجتمع العربي النزعة الانفراديّة، لنتمكّن من إعادة تشكيله بعد ذلك وفق أسس حضارتنا»[١]. ممّا أدّى إلى تفتيت القبيلة والعرش، والقضاء على روح الجماعة، وبهذا تَحوّل المجتمع إلى مجرد أُسرٍ ومجموعاتٍ تربط بينها المصالح الآنية لا غير[٢].

بعد ذلك عمد المستعمِر إلى إلغاء كلّ القوانين الإسلامية المتعلّقة بالتنظيم الإداري، وكان من نتائج ذلك تفكيك الوحدة الإقليمية، فبعدما كانت القبيلة هي الوحدة الرئيسة الضامنة للتماسّك الاجتماعي، حلّ محلها الدوّار، بعدما قسّمت القبيلة الى (دواوير) صغيرةٍ تابعةٍ إداريًّا للقرى الاستعماريّة، وبهذا تم تفكيك القبيلة وفُرِضَ على سكّانها العيش متباعدة. وأصبحت القرية

١. صافر، فتيحة، التحولات الاجتماعيّة التي عرفتها الجزائر بعد مئة عام من الاحتلال الفرنسي، ص٦٠.

٢. نصَّ قانونُ وارني warnier الصادر بتاريخ ٢٦ جويلية ١٨٧٣ على وضع الأملاك العقاريّة تحت سلطة ومراقبة الإدارة الاستعماريّة، غير أنّ الهدف الاساس من وراء هذا القانون لم يكن الجانب الإداري فقط، بل المخطط كان يهدف إلى أبعد من ذلك، وهو القضاء على الهويّة المميزة للقوانين التي كان يستند إليها المجتمع الجزائر. وهي قوانين مستمدةٌ من الشريعة الإسلامية. والقضاء على أسس البناء الاجتماعي الذي كان يضمن الوحدة والتضامن بين الجزائريين. وبالنظر إلى أهداف هذا القانون، يمكن القول إنّه جاء تكملةً لقانون صدر في ٢٢ أبريل سنة١٨٦٣ تحت مسمى: Senatus- consulte، والذي بموجبه تم القضاء على وحدة القبيلة والعرش، ومن ثمّ قرابة الدم، حيث تم تفتيت القبيلة إلى وحداتٍ وتجمّعاتٍ عرفت باسم (الدوّار).

الأوروبيّة الوحدة الإدارية الأساسية بدلاً من القبيلة، التي لم يبقَ من أثرها إلّا بعض التعاطف المعنوي. يقول أحد الفرنسيين، مبتهجًا بنجاح سياسيّة التفكيك هذه: «لقد حطّمنا بعض القبائل القويّة التي كان لها مكانةٌ في البلاد عن طريق القوات العسكريّة، وبعض الأهالي صُودرت أملاكهم، كما عَملْنَا على تكسير شوكة بعض العائلات ذات السمعة».

نتيجةً لهذه السياسة أصبحت العلاقات الاجتماعيّة مبنيةً على المنزع الفردي، بعدما كانت إلى وقتٍ قريبٍ قائمةً على نظامٍ اجتماعيّ يستلهم قوّته من روح الجماعة والتكافل. وبذلك تمّ القضاء علىٍ الحاضنة الثقافيّة للمجتمع الجزائر، على عدّ الثقافة «مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعيّة التي يتلقّاها الفرد منذ ولادته كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه، والمحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيّته، فهي المحيط الذي يعكس حضارةً معيّنةً، والذي يتحرّك في نطاقه الإنسان المتحضّر» [١].

لم يترك المستعمِر وسيلةً توصله لأغراضه إلّا ووظّفها؛ فبالإضافة لمختلف للقوانين التي صاحبت الفلسفة الاستيطانيّة، لجاء إلى نشر أعوانه وعيونه لمراقبة الجزائريين، وتسجيل حركاتهم وسكناتهم، ومعرفة عوائدهم وروابط القرابة بينهم، ليعمل بعد ذلك على توظيفها في إنجاح سياسة (فرّقْ، تَسُدْ) التي عمل عليها بكل الوسائل. خاصّةً بعد تأسيس المكاتب العربيّة (les bureaux arabes)، التي أوكلت لها مهمّة لعب دور (همزة الوصل بين الجنس الأوروبي الذي استقرّ في الجزائر بعد١٨٣٠ وبين الأهلي الذي يسكن البلد)، ممّا يؤدّي إلى الاستيعاب أو حتى إلى الانصهار في شخصٍ واحد، من أجل تسهيل عملية الاستيطان وحماية المصالح الاستعماريّة، والعمل على تذليل الصعاب التي تواجه المستعمِر في تعامله مع مجتمعٍ مختلفٍ بعاداته وتقاليده. وهذه المهام تمرّ حتمًا عبر دراسة البلاد وتقييم جميع المصالح التي تحرّك السكّان العرب، والاستعداد لقمع أيّةٍ مقاومةٍ بالوسائل اللازمة وبأقلّ التكاليف[٢].

أُوكِل لمؤسّسة المكتب العربي ضمان التهدئة، وحمل الأهالي على قبول كلّ القرارات التي تصدر عن المستعمِر، وتَصْوّرهَا على أنّها في صالح الأهالي ورفاهيتهم، وأنّه لا جدوى من مقاومة اليد الممدودة لهم. وبمرور الوقت تَغلْغَلت مهام المكاتب العربيّة في وسط الأهالي، واستطاعت أنْ تُوغرْ الصدور وتثير الضغائن، وتشتت وحدة الصفوف وتُثير العداوة بين الأهالي، خاصّة بعد

١. مالك، بن نبي، شروط النهضة، ص٨٣.

2. G. Yver, Méthodes et institutions de colonisation: les bureaux arabes, Annales. Economies, sociétés, civilisations. 10 eannée, N. 4, 1955.p569570-

أنْ نجح المستعمِر في إيجاد عملاء له من بين الأهالي، ونَصّبهم مسؤولين على بني جلدتهم وفي خدمة المصالح الاستعماريّة، وعمل على ترويض هذه الفئة من المسؤولين، وجعلهم يظهرون بوجهين، وجهٍ مسيحيّ خادمٍ للمستعمِر، ووجهٍ مسلمٍ في ظاهره، حفاظًا على التوازن بين الشعب والإدارة الاستعماريّة.

مارست فرنسا وهي مأخوذةٌ بأحلام مجدها القديم، كلّ ألوان الفظاعات، سلب ونهب واعتداءٍ على أعراض النساء. ونكّلت بالسكّان المحلّيين، وعرّضتهم لشتّى أنواع التعذيب لانتزاع الاعترافات، وأعدمت بالجملة ودون محاكمة. وسلبت الجزائريين من كلّ شيء، وحرّمت عليهم كلّ شيء، حتى استعمال لغتهم الخاصّة، حتى صاروا لا يملكون شيئًا. ولسان حالهم يقول: (لقد صفّينا حضارتهم، فيما منعنا عنهم حضارتنا).

من هذا يمكن القول إنّ الاستعمار أسهم من حيث يدري أو لا يدري في تعزيز النزعة الوطنيّة عند المُسْتَعْمَرين، «فالنظام الاضطهادي الذي يجعلهم على مستوى الحيوان، لا يعطيهم أيّ حقّ، ووضعهم يسوء كلّ يوم، وحين لا يبقى لشعبٍ أيّ ملجأ آخر، إلّا أن يختار طريقة موته، وحين لا يكون قد تلقى من مضطهديه إلّا هدية واحدة، هي اليأس، فما الذي يبقى له ليخسره؟ إنّ مصيبته هي التي تصبح شجاعته، وهذا الرفض الأبدي للاستعمار، سيكون رفضًا مطلقًا للاستعمار... وحين دفعهم اليأس إلى الثورة طرحوا قيمنا وثقافتنا وتفوّقنا المزعوم، واستوى عندهم أنْ يطالبوا بصفة الإنسان وأنْ يرفضوا الجنسيّة الفرنسيّة»[١].

سياسة فرّقْ تَسُدْ، الاستعمار والمسألة البربريّة

بناءً على نظرةٍ استشراقيةٍ تنمّ عن دراسةٍ مسبقةٍ لتركيبة المجتمع الجزائري، عمد المستعمِر إلى بثّ خطاب التفرقة بين أبناء الوطن، حتّى تسهل عليه عمليّة الاختراق والتغلغل، تمهيدًا لعزل مناطق بعينها عن الوطن الأم، وهذا ما يبرّر عمله على تأليب منطقة القبائل عبر خطاباتٍ تجعل من القبائلي صاحب الأرض، وتُصَوّر العربي في صورة الغازي، لجعل المنطقة تمتنع عن مقاومة الاستعمار والمشاركة في المقاومات الشعبيّة ضدّ المحتل. قال الجنرال بيجو مخاطبًا منطقة القبائل: « إنّ فرنسا تريد اليوم أنْ تحكم بلادكم لكي تعيشوا في نعيم، ولكي يتمتّع كلّ واحدٍ منكم بثمرة عمله، وبرزقه بدون خوفٍ من أنْ يجرده أحدٌ من ماله... ولتعلموا أنّ فرنسا دولةٌ كبيرةٌ وقويةٌ، وسوف تصبحون معها كبارًا وأقوياء»[٢].

١. سارتر، ج.ب، الاستعمار الجديد، ص٤٤.

٢. مصطفى، الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ص١٢٣.

انصبّ اهتمام الاحتلال الفرنسي على منطقة القبائل منذ السنوات الأولى، وحاول استغلال هذه المنطقة لإثارة النعرات الطائفيّة؛ حتى يسهل عليه تمزيق روابط الوحدة الوطنيّة، فما كان منه إلاّ أنْ كثّف دراساته حول سكان المنطقة وعوائدهم وأعرافهم وتقاليدهم، محاولاً استغلال التباينات الثقافيّة بين السكّان، لدسّ سمومه، خاصّة لمّا استعصى عليه أمر احتلال منطقة القبائل بالسلاح، فلجأ إلى محاولات الإغراء تارةً، وإثارة النعرات تارةً أخرى، وهذا ما بيّنته كتابات الدبلوماسي المستشرق الفرنسي دو توكفيل (Tocqueville Alexis. de ١٨٠٥ -١٨٥٩)، الذي صرّح في رسائله أنّه مع استحالة غزو بلاد القبائل؛ نظرًا لطبيعتها الجغرافيّة، ومزاج سكّانها الرافض للغزاة من جهة، لم يبقَ أمام المستعمِر إلاّ أسلوب الاستمالة والترويض، «إنّ بلاد القبائل مغلقةٌ أمامنا إلاّ أنّ أرواحهم مفتوحةٌ لنا، وليس مستحيلاً علينا دخولها...طبيعي أنّ ترويض أشخاص كهؤلاء يتم بفنوننا وليس بأسلحتنا». فإذا « تواصل قيام علاقاتٍ هادئةٍ ومستمرّةٍ بين القبائل وبيننا، وإذا لم تعد تخيفهم طموحاتنا، وإذا لقوا منّا تشريعات بسيطةً وواضحة ومضمونة تحميهم، فإنّه من المؤكّد أنّهم سيخافون الحرب أكثر ممّا نخافهما نحن...سنرى حينها أخلاق القبائل وأفكارهم تتعدّل دون أنْ ينتبهوا إلى ذلك، عندها ستسقط الحواجز التي تسدّ علينا منافذ بلادهم من تلقاء ذاتها»[١].

جاء في العمل الاتنوغرافي الاستشراقي (المغرب المجهول)، الذي قام به (أوغسيت موليراس: ١٨٥٥Auguste Mouliéras-١٩٣١): «أنّ الأمازيغ شكّلوا منذ فجر التاريخ كابوسًا للغزاة الذين أرادوا إخضاعهم... لذلك، فإنّ شعار الأمم الأوروبيّة التي تُخْضع هؤلاء الأعداء غير المتسامحين مع المسيحيّة هو: الصرامة القصوى والعدالة القصوى. ويعتبر التفكير في إدماجهم بمثابة يوتوبيا لا يكترثون بها أبدًا، فالمسلم يعتقد بفعل دينه وتاريخه وحضارته الواقعية جدًّا، بأنّه مُطالبٌ بنشر الدعوة وسط الشعوب، فلديه المشاريع نفسها التي وضعناها بشأنه (يقصد المشاريع التنصيريّة). وهو يريد هدايتنا وأسلمتنا ودمجنا بالإقناع أو القوة... ولهذا فهو يقبل الصراع ويتمادى في الاعتقاد بأنّ الكتلة الإسلاميّة لن تُمَسْ، وأنّ النصر النهائي حليفه، ومنذ أنْ عرف مخططاتنا أصبح أكثر مقاومة لممارساتنا التحضيريّة. إنّ الأمازيغي الجزائري الذي وضعنا فيه آمالنا أصبح معرّبًا أكثر فأكثر، فهو يشارك مضطهديه (يشير إلى المسلمين الفاتحين) القدامى الذين كانوا أيضًا معلّميه، القضية نفسها، ومُجمل القول كان مسلمًا، وسيظلّ كذلك»[٢].

---

١. دو توكفيل، نصوص عن الجزائر، ص٢٢- ٢٣.

٢. أوغسيت، موليراس، المغرب المجهول، ٣٢١١.

ظهرت للعلن معالم الإيديولوجية الاستعماريّة، التي تستهدف تقسيم سكّان الجزائر وفق منطق إثني (عرب/بربر)، والعمل على إثارة النعرة الإثنيّة بين المُكوّنيين، ومحاولة استمالة أمراء جيش الأمير عبد القادر في المنطقة لصفوفها، خاصّة الخليفة ابن سالم[١]، الذي كان على وعي بخبث المخطّط الاستعماري وسياسته الرامية لقطع أوصال ثورة المقاومة، وما يؤكّد هذا قوله: «لا تنخدعوا أيّها الجزائريون، ولْتَعلموا أنّ فرنسا دولةٌ قويةٌ، وما أرسلت قوّاتها العسكريّة إلى هذه البلاد إلّا من أجل احتلالها بأكملها...وأنّ الوسيلة الوحيدة لإيقاف هؤلاء الغزاة هي أنْ تقاتلوهم مُتّحدين وبدون هوادة، وأنْ تعاقبوا الخونة الذين رضوا بالذّل واستسلموا»[٢].

اللافت للانتباه أنّ اهتمام السلطات الاستعماريّة بالمنطقة، لم يكن ينطلق من فراغٍ أو من فكرةٍ طارئة؛ بل كان نتيجة لمخططٍ مدروسٍ ارتكز على دراساتٍ أنثروبولوجيّةٍ وإتنوغرافيّةٍ - بداية من عمل المستشرق (venture de paradis) عن (قواعد ومفردات اللغة البربريّة)، الذي طبع سنة ١٨٤٤[٣] - غطّت كلّ ما يتعلّق بمنطقة القبائل، ووفّرت رصيدًا هائلاً من المعلومات في مجالات العادات والتقاليد والتراث الفلكلوري والشفهي والبنية الاجتماعيّة، عُرف بمسمّى رصيد الوثائق البربريّة. والذي على أساسه رُسم مخطط التفرقة والفصل الإثني بين المكوّن العربي والأمازيغي، فصل سكّان القبائل عن غيرهم، بوصفهم مجموعاتٍ متميّزةً عن العرب ومعادية لهم. وبناءً على ذلك استقرّ رأي المحتلّ على أنّه «يوجد في الجزائر عنصران متمايزان من حيث اللغة والعادات، وحتى الدين، وهما العنصر القبائلي والعنصر العربي، ويجب علينا أنْ نبقي على هذا التمايز والانقسام»[٤]، وحجّتهم الظاهرة لهذا التقسيم، حماية الإثنيّة البربريّة من همجيّة العرب الغزاة الدخلاء، «فالبربر وإنْ نسوا لغتهم وأخذوا لغة الغزاة (العرب)، فهم بكلّ يقين قد حافظو على تفوّقهم العددي»[٥].

وبغرض توسيع هوّة التفرقة الإثنية، خَلُصت الدراسات الاستشراقيّة حول البربر الى أنّ « القبائل

١. هو الخليفة سي أحمد الطيب بن سالم الدبيسي، ينحدر من أصولٍ مغربية من مدينة فاس، هاجرت عائلته الى الجزائر قبل التواجد العثماني بالمنطقة، نشأ وترعرع وتلقّى العلم في زاوية أجداده التي أسّسها سيدي سالم بن مخلوف، عيّنه الأمير عبد القادر خليفةً له على منطقة القبائل، سنة ١٨٣٧. بعد التضييق عليه ومحاصرة المنطقة، استسلم مع من بقي معه، فتمّ نفيهم إلى الشام سنة ١٨٤٧.

٢. الأشرف، مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ص١٢٣- ١٢٤.

٣. سعيدوني، ناصر الدين، المسألة البربرية في الجزائر، ص١٤٤.

٤. المصدر نفسه، ص ١٤٧.

٥. المصدر نفسه، ص١٤٨.

شعبٌ نبيلٌ في انتمائه، قابلٌ للتحوّل السريع، والتقبّل لكلّ الحضارات التي كان على اتصالٍ بها، وهو يعدّ من بين الشعوب التي استطاعت أنْ تحافظ على خصائصها الأوليّة وطبيعتها الخاصّة، وهذا ما جعله شعبًا يجمع عدة خصائص...فهو قد يظهر لنا أنّه مستسلمٌ متقبلٌ بصفةٍ تامةٍ ومتعايشٌ مع أوضاع الآخرين، ولكنّه في أعماقه يحافظ على نفسه، وبكلمةٍ واحدة: هو شعبٌ قليل المقاومة ولكنّه شديد الثبات والاستمرار»[1]. وبناءً على هذه الرؤية عمدت الإدارة الاستعماريّة الى استثناء منطقة القبائل من الخضوع لأحكام الشريعة الإسلاميّة، التي كانت متّبعةً في بلاد القبائل قبل الاحتلال، واستُبْدلت بالأحكام العرفيّة؛ كونها تعزز الخصوصيّة والتمايز الإثنيّ، في خطوةٍ إضافيةٍ للقضاء على القاسم المشترك الذي كان يوحّد أبناء الجزائر، ويحفظ هويّتهم.

سياسية تغيير الألقاب

ما كادت سياسات طمس الهويّة المميّزة للشعب الجزائري (غلق المساجد، وتشتيت الزوايا، ومصادرة الأراضي، وتشتيت القبائل والعروش، والقضاء على اللغة العربيّة...إلخ) تجد طريقها وسط الجزائريين، حتى خرج عليه الاستعمار بقانون الحالة المدنيّة الفرنسي ١٨٨٢ حين ألزم الجزائريين بحمل ألقابٍ عائليّةٍ تحت غطاء ضبط الحياة المدنيّة في الجزائر، وفقًا لما تراه فرنسا الاستعماريّة مناسبًا لها، وهذا ما أثّر على منظومة التسمية، الذي كان يسلكه المجتمع الجزائري، حين كانت مكوّناته تراهن على استمرارية التواصل الهويّاتي، وتعمل للحفاظ على نظام التسمية الأصلي الذي يليق بالمجتمع الأصيل، بدليل ما حلّ بذلك النظام الذي كان متعارفًا عليه في البلاد بفعل مخطّطٍ استعماريّ مدبّرٍ بطريقةٍ تستند على نظرة استشرافيّةٍ سلبيّةٍ ومضرةٍ باستقرار مكونات المجتمع المحلّي. وذلك قياسًا بدلالات ومعاني تلك الألقاب والأسماء التي لا تمت بأيّ صلةٍ للمروءة والعزّة والشهامة والإسلام.

والغاية من استبدال ألقاب الجزائريين الثلاثيّة وتعويضها بألقابٍ لا ترتبط بالنسب، هو تفكيك نظام القبيلة لتسهيل الاستيلاء على الأراضي، وإبراز الفرد كعنصرٍ معزولٍ، وتغيير أساس الملكيّة إلى الأساس الفردي، بدلاً من أساس القبيلة، وطمس الهويّة العربيّة والإسلاميّة من خلال تغيير الأسماء ذات الدلالة الدينيّة وتعويضها بهويّةٍ هجينة، وإحلال الفرد في المعاملات الإداريّة والوثائق مكان الجماعة، وهو ما مثّل ضربةً موجعةً للهويّة الإسميّة الجزائريّة في محاولة لطمسها، وتمهيدًا محوها من الأساس، بعدما سنّ الفرنسيّون قانونًا يعاقب كلّ من لا يستعمل لقبه العائلي. ولم يتوقف عبث

١. المصدر نفسه، ص١٤٨.

السلطات الاستعماريّة عند هذه المرحلة، بل لجأ للإهانة الرمزيّة عندما عوّض العديد منها بأسماءٍ مشينةٍ ونابيّة، بهدف تحطيم معنويات الجزائريين. وامتدّ العبث للتلاعب بأسماء المدن والقرى، لتطلق عليها أسماء ضبّاط وقادة ورجال دينٍ فرنسيين، ولم تسلم من ذلك الشوارع والساحات العموميّة، في خطةٍ ممنهجةٍ للقضاء على معالم الهويّة العربيّة الإسلاميّة للجزائر.

ضرب البنية الفكريّة والذهنيّة للمجتمع الجزائري وتشويه الثقافة العربيّة والإسلاميّة

لم تكن الجزائر من الأقطار المتخلّفة كما ادّعى الاحتلال الفرنسي، فهي عكس ما كانت المركزيّة الغربيّة تدّعي، كانت بلدًا مزدهر الثقافة والتعليم والتنظيم الإداري والقضاء، عمدت إليه أيادي المستعمِر وعاثت فيه إفسادًا، فإنّ «المسلمين في إفريقيا الشمالية لم يكونوا غير متمدنين، وإنّما كانت مدنيتهم ضعيفة، كانت لديهم أملاك محسّبة، ينفق ريعها على التعليم وعلى المشاريع الخيريّة، فصادرناها وأمّمناها، وحوّلنا وجهتها؛ فنقّصنا من المشاريع الخيريّة، وتركنا معاهد التعليم تتساقط، وكذلك الزوايا، فكانت النتيجة أنّ بصيص النور الذي كان حولنا أعقبه الظلام؛ ولهذا أهملت تولية الأكفاء من رجال الدين للإفتاء والقضاء والتدريس والإمامة...فصيّرنا جماعة المسلمين أفقر وأتعس من حالتهم التي كانوا عليها قبل الاحتلال»[١]. وبموجب ذلك فرضت الرقابة على كلّ مناحي الحياة الدينيّة، والاجتماعيّة، والسياسية والتعليمية، ففرنسا العلمانية[٢]، كانت تقول للجزائري هنا: «أنا أحقّ منك بالتصرّف في دينك، فلا تدخل المسجد إلّا بإذني، ولا تُصَلِّ إلّا وراء إمامي، ولا تحجّ إلّا برخصتي، ولا تصُمْ إلّا على رؤيتي، ولا تُزَكِّ إلّا بعد استشارتي، ولا تضع زكاتك إلّا حيث أريد، لا حيث تريد»[٣].

وفي مجال التعليم الذي يُعدُّ رافدًا مهمًّا من روافد تقوية الهويّة والانتماء، صار» الاحتقار هو الأساس الذي بنى عليه الاستعمار تربيته وتعليمه وحكمه، وقد أصبح خلقًا ذاتيًّا في أبنائه وأنصاره وحكّامه، لا يستطيعون الانفكاك عنه؛ لأنّه جزءٌ من وجودهم، ومادةٌ لحياتهم، ثم غمره البغض فأصبحا عنصرين مكوّنين لشيءٍ موجودٍ هو هذا الظلم. وإنّ الاحتقار والبغض هما اللذان رفعا الحصانة عن ديننا، وأموالنا، وأعراضنا، وأبداننا»[٤].

١. سعيدوني، ناصر الدين، بوعبدلي، المهدي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ص١٤٥.

٢. الغريب أنّ فرنسا التي يؤمن بقيم العلمانية وفصل الدين عن الدولة، لم تمنح هذا الامتياز للجزائريين، ولم تمنحهم حرية التصرّف في ديانتهم وأماكن عبادتهم.

٣. آثار الشيخ البشير الإبراهيمي، ٣٦٣\١٣.

٤. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ٣- ٣٦٤.

وأخطر جانب عمل المستعمِر على إذكائه وتقويته كلّما خمد، هو ذاك الجانب المتعلّق بالحيلولة دون اتّحاد الكلمة والجهود؛ لأنّه كان يعلم أنّ الوحدة خطرٌ على ديمومته وعرقلة لمشاريعه، وأنّه في الفُرْقَة سيكون كلّ قطرٍ لقمةً سائغةً يمكن الاستفراد بها، «حتّى أصبح بعضنا لبعض عدوًا، والتخريب لضمائرنا حتّى أصبحت خيانة الدين والوطن بيننا مَحْمَدَةً نتمادح بها، والتمزيق لجامعتنا حتى أصبحنا أُممًا متنابذةً نتعادى لإرضائه، ونتمادى في العداوة بإغوائه...والتعقيم لعقولنا وأفكارنا حتّى أصبحنا نتنازل عن عقلنا لعقله وإنْ كان مأفونًا، وعن فكرنا لفكره وإنْ كان مجنونًا، وتلقيح فضائلنا برذائله حتّى انحطّت فينا القيم المعنويّة، وبخست موازين الفضيلة عندنا، وأخيرًا ترويضنا على المهانة حتّى أصبحنا نهزأ بماضينا افتتانًا بحاضره، ونسخر من رجالنا الذين سادوا العالَم وساسوه بالعدل إعجابًا برجاله، وننسى تاريخنا لنحفظ تاريخه، ونحتقر لساننا احترامًا للسانه»[١].

الاستعمار والمسألة الدينيّة

كانت الجزائر قبل دخول الاستعمار أمةً «ذات مقوّمات من دينها ولسانها، وذات مقوّمات من ماضيها وحاضرها، وكانت أرقى عقلاً، وأسمى روحًا، وأوفر علمًا، وأعلى فكرًا من أمم البلقان لذلك العهد، بدليل أنّ هذه الأمة كان لها حظٌّ من حكم نفسها بنفسها لم تصل إليه تلك»[٢]. ولكن الاستعمار أراد لها غير ذلك، وجاءت فرنسا التي تدعي أنّها «حاملة لواء الحرية وحادية الأمم إليها، وأنّها حامية حقوق الإنسان، وأنّها زعيمة التحرير في العالم، وأنّها أستاذة المُثل العليا للإنسانيّة، وأنّها منارة العدل التي يهتدي بها المظلومون، يبدئون القول في ذلك ويعيدونه وينشرونه في العالم، ويكتبونه في كلّ سطرٍ من صحفهم ومؤلّفاتهم ... وهنا يفرضون علينا العبودية، ويمنون بها علينا»[٣]، فعمدت إلى سياسة الاحتقار، ومارستها على الشعب، وسلبت مكانته واعتزازه بمقوماته وهويته، وجردته من أسباب القوّة والحياة بكلّ وسيلة، وروضته على الذّل حتى يطمئن إليها، ويعتقد أنّه كذلك خلق، أو لذلك خلق. كما كتب الجنرال دوكرو قائلا: «يجب علينا أنْ نضع العراقيل أمام المدارس الإسلامية والزوايا...يجب أنْ يكون هدفنا تحطيم الشعب الجزائري ماديًّا ومعنويًّا»[٤].

لم يغفل الاستعمار الفرنسي عن الدور الذي يؤدّيه الدين الإسلامي في تماسك المجتمع

١. المرجع نفسه، ص١٠١.

٢. المرجع نفسه، ٣- ص٩٨.

٣. المرجع نفسه، ص٩٩.

٤. مصطفي، الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ص١٢٩.

الجزائري؛ ولهذا عمد إلى طمأنة الساكنة، كما جاء في معاهدة الاستسلام التي وقّعها الداي حسين: «ستبقى ممارسة الديانة المحمديّة حرّة، ولن يلحق أيّ مساسٍ بحريّة السكّان من مختلف الطبقات، ولا بدينهم، ولا بأملاكهم، ولا بتجارتهم، وصناعتهم، وستكون نساؤهم محلّ احترام». ولكن النية المبيّتة كانت أبعد من ذلك؛ لأنّ المستعمِر كان على دراية بالقوة المعنويّة، والتأثير البالغ الذي تملكه الروح القرآنيّة على نفوس الجزائريين؛ ولذلك عمد إلى سياسة المكر والخداع في التعامل مع الوضع، فلم يباشر صراحةً بمنع تدريس القرآن وعلومه، بل ترك وهج الروح القرآنيّة «ينطفئ في الخرافات والجهل، ما دام ينقص علماء الشريعة والوُعاظ». وهو هنا يتحاشى المواجهة المباشرة مع الأهالي، ويدرك ثمن المخاطرة «لأنّ الأهواء الدينيّة لدى شعبٍ ما، تجد دائمًا رجالاً يتولون استغلالها وتوجيهها»[١]. فما كان من المستعمِر إلّا اتباع أسلوب «دعُوا تراجمة الدين الطبيعيين والمنتظمين ينقرضون. لا تلغوا الأهواء الدينيّة، اعهدوا بها فقط الى ساخط أو الى محتال». وهذا تمهيد للسيطرة على المراجع الدينيّة، وتدجينها، حتى تكون عونًا له في تحقيق مشاريعه التوسعية. ومن ذلك نذكر لجوءه لبعض العلماء، لاستصدار فتاوى تبرر وجوده، وتعطي الشرعيّة لأفعاله. كما كان الحال مع الفتوى الصادرة عن (مفتي المالكيّة والحنفيّة) لسكّان المدية وما جاورها عشية الاحتلال، والتي جاء في نصّها: «إلى إخواننا المسلمين في البلدان والقرى من عرب وأتراك وقبائل: اعلموا رحمكم الله أنّ الجلنار السر عسكر، الذّي ملكه الله بلادنا بحكمه النافذ، وتقديره السابق، قد علمنا منه وتحققنا أنّ خروجه إلى ناحيتكم لم يكن بقصد حرب ولا قتال، وإنّما هو بقصد الاستيلاف، والتفرج، وإعانة الضعفاء، وأنّه يسالم من يسالمه، ويحسن إلى جميع من لقيه بغير سلاح، ويعطي ثمن كلّ ما يشتريه، ممّن يأتيه بثمن يرضيه، وأعطانا عهد الله وميثاقه... ونصيحتنا لجميعكم هي أنْ تجنحوا إلى ما أمر الله، وصونوا دماء المسلمين ونحن نضمن لكم ألّا يعرتيكم منه في خروجه هذا ما يضركم...فأما من شهر السلاح وأراد الحرب منكم فوباله على نفسه»[٢].

يظهر من هذا نوايا المستعمر كانت تستهدف استغلال رجال الدين، والقضاء على المرجعية التي تحول بينه وبين تدجين الجزائريين، وجعلهم يقبلون بوجود المستعمر؛ لأنّ الخطّة كانت تقتضي إلحاق الشعب الجزائري بالمسيحيّة، خلال فترة وجيزة «خلال عشرين عامًا لن يكون للجزائر إلهٌ غير المسيح، ونحن إذا أمكننا أنْ نشكّ في أنّ هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا على أيّ حالٍ أنْ نشكّ بأنّها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد». فكانت أولى خطوات هذه السياسة،

١. دوتوكفيل، نصوص عن الجزائر، ص١٢٩.

٢. زوز، عبد الحميد، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، ٥٧- ٥٨.

القضاء على المساجد وتحويلها إلى كنائس وثكناتٍ عسكريّة، وإسطبلاتٍ لحيواناته، كما عبّر عن ذلك الجنرال (De Lamoriciére-١٨٠٦١٨٦٥): «حللنا بمدينة الجزائر فاتّخذنا من المدارس مخازن وثكنات وإصطبلات، واستحوذنا على أملاك المساجد والمدارس، وكنا نعتقد أنّنا سَنُعلم الشعب العربي مبادئ الثورة الفرنسيّة، ولكن مع الأسف أنّ المسلمين رأوا في ذلك ضربة للدين والعقيدة»[١].

عدّت الإدارة الاستعماريّة الإسلامَ عدوّها الأوّل في الجزائر، فعمدت إلى طمس كلّ مَعْلمٍ من معالم الهويّة الإسلاميّة، وعلى رأس ذلك اللغة العربيّة، حاملة المعنى والقيّم والتراث الأمة، لغة القرآن ووسيلة فهمه، وبناءً عليه نشطت الحركة التبشيريّة في الجزائر تحت إشراف الأسقف لافيجري (Charles Martial Lavigerie ١٨٢٥ – ١٨٩٢)، مُسْتغلةً حالة البؤس والحرمان، التي عاشها الجزائريون خلال فترة المجاعة سنة ١٨٦٦-١٨٦٧، وتحت غطاء الأعمال الخيريّة والخدمات الصحيّة والتعليميّة، عملت «الإدارة الاستيطانيّة على تغيير نمط التنشئة الاجتماعيّة للأطفال، حتى يتم إبعادهم عن مرجعيّتهم الإسلاميّة، كما صرّح بذلك الكاردينال لافيجرى قائلاً: علينا أنْ نخلّص هذا الشعب من قرآنه، وعلينا أنْ نعنى على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادئ غير التي نشأ عليها أجدادهم. كما عمدوا الى تأجيج النزعة العرقيّة، وزرع التفرقة من خلال محاولة الاستفراد بمنطقة القبائل وإخراجها من دائرة المحاكم الإسلاميّة، وإلحاقها بالجماعات القضائيّة حتى يسهل تنصيرها بحجة أنّ البرابرة قريبون من الإنجيل وأساطير الإنجيل، وإذا شئنا أنْ نحضّر الشعوب فما علينا إلّا أنْ ننشر أفكار الإنجيل، ونتأمل جيدا في هذا الأمر؛ لأنّ الأفكار هي التي سوف تضمن السيطرة؛ لأنّ سلاحنا في هذه الحرب هو سلاح الأفكار»[٢].

في مقالٍ له تحت عنوان: (جذور المدّ الشعوبي في الجزائر)، يؤكّد المؤرّخ الجزائري ناصر الدين سعيدوني: «أنّ خطّة المستعمِر كانت تهدف الى إيجاد تيارٍ جزائريّ في مظهره وأصوله، فرنسي في قناعاته وتوجهاته، فهو يرفض مقولة الجزائر فرنسيّة بحكم الواقع...كما أنّ هذا التيار لا يسلّم بفكرة الجزائر العربيّة الإسلاميّة، باعتبارها لا تعبّر عن طموحهم ولا تتماشى مع انتمائهم وقناعاتهم»[٣]، بهذا التوجّه عدّ دعاة المشروع الاستعماري الفرنسي أنّ التعليم هو أحسن وسيلة

١. بقطاش، خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسيّة في الجزائر (١٨٣٠-١٨٧١)، ص٢١.

٢. مصطفى، الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، ص٢٧٦.

٣. بن نعمان، أحمد، فرنسا والأطروحة البربرية، ص٣٥.

لدمج العنصر القبائلي في المجتمع الغربي، فبعد فشل محاولات التنصير التي لم تنجح في جلب أكبر عددٍ من الساكنة، انطلقت الخطة البديلة لفرنسة بلاد القبائل، ونشر القيّم، والثقافة الفرنسيّة في بلاد القبائل.

ليأتي الدور بعد ذلك على استغلال الطرق الصوفيّة، التي كانت تمثّل عقبةً كؤودًا في وجه المستعمِر وسياساته التنصيريّة، بما كانت تمثّله من ثقلٍ ومكانةٍ في قلوب الجزائريين، ومركزًا للتعليم والوعظ، ومنطلقًا لمختلف حملات المقاومة ضدّ الاحتلال، بدايةً من مقاومة الأمير عبد القادر. أدرك المستعمِر الدور المهمّ الذي أدّته الزوايا في المحافظة على الهويّة الإسلاميّة للجزائريين، فقد كان لها الفضل في المحافظة على الإسلام وتعليم النشء لغته وقرآنه، ولولا تلك الجهود ما بقيت الجزائر محافظةً على هويّتها، نتيجة للهزّات التي عرفتها في سيرورتها التاريخيّة، بعد أنْ تكالب عليها الطامعون - رغم ما قيل عن ضحالة البرامج وعدم ملائمتها للمستجدات، وإغراقها في تبجيل الشيوخ والتوقف عند كراماتهم - وهذا ما لم يتقبله ساستها، فاستعملوا كلّ الوسائل لمحاصرة دور الزوايا والحطّ من مكانتها في أعين مُريديها، فاستعملوا أسلوب الترهيب تارةً، والترغيب تارةً أخرى، وأثاروا الفتن والقلاقل بين شيوخ الزوايا، وما إنْ شارف القرن١٩ على نهايته حتى أحكمت الإدارة الاستيطانيّة قبضتها على الزوايا، بعد أنْ قضت على بعضها ودجّنت بعضها الآخر، الذي أصبح لعبةً في يد المستعمِر، وتمّ توظيفه لتمرير وتبرير كلّ ما يريده المحتلّ، واختفت من جرّاء ذلك مفاهيم المقاومة والجهاد ضدّ المحتلّ، وحلّ محلّها خطاب التنويم والتخدير والرضا بالقضاء والقدر، ما دام الاستعمار قضاءً وقدرًا من الله، فما علينا إلّا التسليم والرضا بقضاء الله وقدر. وهكذا وبعد أنْ كانت المصدر الأساس للإشعاع الحضاري للجزائريين، انقلبت (بعض) الطرق الصوفية – بعد أنْ تقربت منها الإدارة الاستعماريّة - إلى عامل تخديرٍ وتثبيطٍ للهمم والعزائم، ومركزٍ لنشر الفكر الخرافي[١].

١. انظر: الفكون، عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادّعي الولاية، ص٣١- ٣٢.

الاستعمار وقضية المرأة[١]

لم تبقَ قضيّة المرأة بمنأى عن عبث الاستعمار؛ ولهذا عمل على استدراج المرأة الجزائريّة لحلبة الصراع بشتى وسائل الإغراء، فتمّ فتح مراكز لتعليم الخياطة والطبخ واللباس بغرض استقطاب فتيات الأسر الفقيرة نحو الثقافة الفرنسيّة، وسلخهم عن أصول ثقافتهم المحلية ودمجهن في منظومة المستعمِر الثقافيّة والقيميّة. ومن جهةٍ أخرى توفير اليد العاملة التي يحتاجها اقتصاد المحتلّ بأقلّ التكاليف. ولسان حالهم يقول: «لو تمكّنا من استقطاب مئة ألف من بنات الأهالي وإشباعهنّ بمبادئ حضارتنا، بحيث يؤخذن من مختلف فئات المجتمع وأعراق الأيالة، ستصبح هذه الفتيات بحكم الظروف، الزوجات المفضّلات للرجال ذوي المكانة المرموقة ضمن الفئة التي ينتمين إليها في المجتمع، ومن ثمّ نضمن للأبد خضوع البلد، ويكونّ بالتالي الرهينة التي يصعب استردادها»[٢]. ولم تتوقف مكائد الاستعمار عند نقطة الاستقطاب هذه، بل تم توظيف قضيّة المرأة لتحقيق هدفٍ أبعد، وهو ضرب الدين الإسلامي، من خلال تسويق فكرة أنّ تخلفّ المرأة الجزائريّة[٣] مرده للشريعة الإسلاميّة، التي ظلمت المرأة، وأبقتها في درجة أدنى من الرجل، ومن ثمّ لا سبيل أمامها إن هي أرادت الانعتاق من هذا الوضع، سوى تقليد نظرياتها الأوروبيّات والسير على خطاهن[٤].

---

١. للتوسّع حول المنظور أنظر المراجع التالية:

- كفاح المرأة الجزائريّة، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة، وزارة المجاهدين، ٢٠٠٧.

- بوعزيز، يحيى، المرأة الجزائريّة، وحركة الإصلاح النسويّة العربيّة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠١.

- يمينة منخرفيس، صورة المراة الجزائريّة في الفن الاستشرافي، رسالة ماجستير، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر٣، ٢٠١٠-٢٠١١.

٢. جبري، عمر، عواج حكيم، أثر السياسة الاستيطانية في تفكيك المجتمع الجزائري، ص٥٠.

٣. لتفاصيل أكثر انظر:

Feriel Lalami, L'enjeu du statut des femmes durant la période coloniale en Algérie, Nouvelles Questions Féministes 20083/ (Vol. 27).

٤. إنّ الوضع المزرى للمرأة الجزائريّة آنذاك لا يمكن ردّه للإدارة الاستيطانيّة فقط، فهذه الأخيرة استغلت أوضاعًا كانت قائمةً بالأساس واتّخذت منها أرضيةً لضرب هويّة المجتمع الجزائري. يقول الدكتور يحي بوعزيز: «المرأة الجزائريّة سُدّت أمامها كلّ السبل، وفُرضت عليها عادات وأعراف، بعيدة كلّ البعد عن الدين والرقيّ والحضارة، وجُعل المنزل بمثابة سجن لها، لا تغادره من يوم أن تُزف إليه إلى أن تُحمل على النعش للقبر، وفُرض عليها حصار اجتماعي خانق، واعتبر ذكر اسمها في أيّ محفلٍ قلة أدب...وعاد ذلك بالتدهور والتخلف عليها وعلى الأسرة والمجتمع». انظر: بوعزيز، يحيى، المرأة الجزائريّة وحركة الإصلاح النسويّة العربيّة، ص٢٣.

استراتيجيّة فرْنسة المجتمع الجزائري ومحاربة اللغة العربيّة

اعتمدت الإدارة الاستعماريّة سياسة اللامبالاة تجاه التعليم في بادئ الأمر، فالاستعمار سعى في البداية إلى تجهيل الشعب وإبقائه في دائرة التخلّف، وعمل على محاصرة المعلمين وفرض الرقابة عليهم، وتجفيف منابع المساعدات التي كانت توّفر أجورهم، بعد مصادرة الأوقاف ونفي العديد من العلماء وترهيب الباقين، ترك الفرنسيّون التعليم يموت دون الإعلان عن ذلك رسميًّا، واشتغلوا بالاستيلاء على الأراضي وتوطين أبنائهم فيها ومحاربة المقاومين، وأهملوا كلّ ما يتعلق بتعليم الجزائريين، وفلم يروا مانعًا من انتهاج أسلوب تخريب المؤسّسات التعليميّة الجزائريّة (مساجد، زوايا، كتاتيب)، حتى يرجع الشعب الجزائري إلى مرحلة الجاهليّة الأولى حسب زعمهم، وعندئذٍ يعود ليرتمي في أحضان جلاّديه ليعلّموه، وحينذاك يكسبوه في صفّهم عن طريق التربية، فالمهمّ في كلّ هذا أنْ يبقى في وضعية المحتاج إلى الحماية. وبتعبير شارل ريشار « لا بدّ من وضع هذا الشعب (الجزائري يقصد) تحت أرجلنا لكي يحسّ جيدًا بما لنا من وزن، وعلينا بعد ذلك أنْ نخفّف عليه الضغط تدريجيًا، لكي نجعله بعد قرونٍ يرتقي لمستوانا»[١].

انتهج الاستعمار في البداية سياسية الهدم والتحويل، خاصّةً فيما يخصّ المساجد الكبيرة، التي كانت توثّر داخل المجتمع، بالإضافة إلى دورها في الثورات الشعبيّة ومحافظتها على هويّة وتماسك المجتمع الجزائر، ولم تسلم من هذه السياسة حتى الكتاتيب، التي كانت حاضنةً للتنشئة السلوكيّة والأخلاقيّة وتعليم القرآن الكريم، وهذا ما كان يقلق الإدارة الاستعماريّة، ويعرقل مشاريعها الرامية لطمس الهويّة تسهيلاً لعملية إدماج الجزائريين في منظومتها القيميّة والحضاريّة. خاصّةً أنّ التقارير كانت تؤكّد آنذاك أنّ التعليم الابتدائي في الجزائر كان منتشرًا بشكلٍ كبير، حيث كان الأطفال من الجنسين يعرفون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم. وهذا يعني أنّه من الصعب انقيادهم ومحو شخصيّتهم الدينيّة، وانتمائهم الوطني، وجعلهم خاضعين للفَرْنَسَة، التي كان يسعى إليها المحتلّ، في إطار مشروعه الرامي لاستئصال الجزائريين من مقوماتهم الحضاريّة.

غير أنّ سياسة الاستعمار لم تستطع الاستمرار على هذه الخطة السلبيّة مدةً طويلة، ولا سيّما في المستعمرات الاستغلالية؛ لأنّ المستعمِرين وجدوا أنفسهم في حاجةٍ شديدةٍ إلى الاستعانة بأهل البلاد؛ لاستغلال المرافق الاقتصاديّة والكنوز الطبيعيّة، وشعروا بضرورة تعليم أولاد هؤلاء الأهالي لإعدادهم للقيام بالأعمال اللازمة لهذا الغرض؛ فاضطُروا إلى ترك السياسة السلبيّة، وأخذوا يُقدِمون

١. الأشرف، مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ص٣٣٧.

على تأسيس معاهد تعليميّةٍ خاصّة بأولاد المستعمرات؛ وذلك للغرضين الأساسيين التاليين:

- تعليم جماعات من الأهالي لاستخدامهم في مصالح الحكومة والشركات، ومختلِف المشاريع التي تتطلَّبها أمور الاستغلال والاستعمار[١].

-عملاً بتوصيات مستشرقيه، انتبه المحتل لضرورة اقتران الغزو السياسي العسكري ببرنامجٍ تعليمي، يهدف إلى تحبيب الدولة المستعمِرة وحمل الأهالي على الاستسلام إلى حُكْمها، وعلى خدمة مصالحها طواعية. كما قال دو روفيقو(١٧٧٤م-١٨٣٣م) في إحدى المناسبات: «إنّ المعجزة الحقيقة التي علينا أنْ نضعها هي أنْ تحل اللغة الفرنسيّة شيئًا فشيئًا محلّ العربيّة، حيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعليم في مدارسنا»[٢]. «ليصبح هؤلاء الشباب عناصر مفيدةً ووسطاء بين إخوانهم في الدين والفرنسيّة[٣]، من خلال إغرائهم بامتلاك السلطة أو جزءٍ بسيطٍ منها، ثمّ التسلّط على أبناء ديانتهم، وهو الأمر الذي يدفع الأهالي الآخرين إلى الإقبال على هذا التعليم»[٤].

بذل الفرنسيّون جهودًا كبيرةً، ووضعوا خططًا دقيقةً لتحقيق هذا الغرض، وشعارهم في ذلك: أنّ إيالة الجزائر لن تصبح حقيقةً مملكةً فرنسيّةً إلّا عندما تصبح لغتنا لغةً قوميّةً، والعمل الجبّار الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسيّة بين الأهالي بالتدريج، الى أنْ تقوم مقام اللغة العربيّة. وهذا الهدف المنشود يمرّ حتمًا بخطوةٍ ضروريّةٍ تتمثّل في «اطّلاع الشباب الجزائريين على حضارة المستعمِر وتقاليده وكلّ معارفه، ليصبح هؤلاء الشباب عناصر مفيدة ووسطاء بين

١. الحصري، ساطع، آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة، ص١٢٦.

٢. أحمد، منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطور وقضاياه، ص٦٠.

٣. وهي السياسة التي نتج عنها بالفعل وبعد عقود من الاحتلال جيل تمت أدلجته وبرمجته ليصبح ناطقًا رسميًّا باسم فرنسا ومروّجًا لسياساتها. يقول الشيخ ابن باديس (١٨٨٩-١٩٤٠) ردًّا على فئة المتعلمين الذين أثّر فيهم التعليم الفرنسي، وصاروا ينظرون لتاريخ بلدهم نظرة دونية: «نعلم كثيرًا من أبناء بلدنا الذين تعلّموا في غير أحضاننا، ينكرون - وربما من غير سوء قصد - تاريخنا ومقوّماتنا، ويودّون لو خلعنا ذلك كلّه واندمجنا في غيرنا...كلمة صريحة نعرب بها في يقيننا، عن الحقيقة التي يعتقدها الشعب الجزائري،...الأمة الجزائريّة، أمة متكوّنه موجودة، كما تكونت ووجدت كل الأمم، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل أعمالها، ولها وحدتها الدينيّة واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة، وعوائدها وأخلاقها، بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمم الدنيا. ثمّ إن هذه الأمة الجزائريّة ليست فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كلّ البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عوائدها، وفي عنصرها، ودينها، ولا تريد أن تندمج».. انظر: فرسوني، فراس، الفكر التحرري عند ابن باديس وأثره في استقلال الجزائر، ص٦٣- ٦٤.

٤. فركوس، صالح، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، ص١٥٩.

إخوانهم في الدين والفرنسيين»[١]. وفي إطار هذه الاستراتيجيّة فرضت على الأعيان الجزائريين المتعاونين معها إرسال أبنائهم ليتعلّموا في فرنسا لتنشئة جيلٍ مقطوع الصلة بجذوره الحضاريّة، وقيمه الاجتماعيّة والدينيّة، ولسان حال الإدارة الاستعماريّة يقول: «في كلّ بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أنْ يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه»[٢].

وكان الهدف من وراء ذلك تكوين نخبةٍ من الجزائريين بعيدين عن بيئتهم الثقافيّة، وعن كلّ ما من شأنه أنْ يحيي في نفوسهم الحماسة والروح القوميّة، ويُوَعيهم ضدّ الاستعمار. فيعودون إلى أهلهم مؤدلجين وقد تمكنت منهم الرؤية الحضاريّة للمستعمِر، فيعملون على نشر اللغة الفرنسيّة، ويخدمون توجهات المحتلّ بين أهاليهم، لاستمالتهم وجعلهم يقبلون الاندماج والفرنسة[٣]. لتنطلي الحيلة على أفراد الشعب، فلا يمرّ على الشعب المغلوب عقود من السنين حتى ينشأ فيه جيلٌ ينطق بلغة المستعمرين، مثلما ينطق بها أهلها، وأمّا لغته العربيّة الأساسيّة فتصبح لغةً منسيةً أو شبه منسيّة»[٤].

وهذه الصورة لونٌ من ألوان الإلزام القهري للشعب المغلوب على أمره، لينسى لغته الأساسيّة، ويحل محلّها لغة الغزاة المستعمِرين، ويرافق ذلك حرمان طالب العمل أو الوظيفة ممّا يطلبه ما لم يكن متقنًا للغة المحتلّ إتقانًا جيدًا، وفي هذا أيضًا لونٌ من ألوان الإكراه على صهر الشعب المغلوب صَهْرًا تامًا، باللغة التي يفرضها عليه المستعمِر. ووضعوا البرامج والمناهج اللازمة لتعليم الأطفال: ما يترتب على الجزائريين من الواجبات نحو فرنسا مقابل الحماية التي تسديها إليهم، والعدل الذي أدخلته إلى بلادهم. والاحترام الذي يجب أنْ يشعروا به نحو فرنسا، دون أنْ يتجاوز الغرض من تعليم الأهالي القدر الذي يكسبهم المهارات الحريّة، التي تجعلهم قابلين للاستخدام من طرف المحتلّ. وقالوا: «يجب علينا أنْ نُعلِّم أولاد المستعمرات من غير أنْ نثقّفهم، يجب علينا أنْ نُعلِّمهم تعليمًا عمليًّا يجعلهم آلات صالحةً في المعامل والمتاجر والحقول، من غير أنْ نوسِّع آفاق أنظارهم وأفكارهم إلى ما وراء الأعمال المطلوبة منهم».

---

١. عماد، لبيد، المحاولات الفرنسيّة لطمس الهويّة الجزائريّة، ص٣،٤.

٢. المصدر نفسه، ص٤.

٣. للمزيد حول مخطط المُستعمر في هذه المسألة. انظر: الحصري، ساطع، سياسة التعليم (في الجزائر)، ص٤٧١ وما بعدها

٤. الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، ص٣٥٥.

حركة الإصلاح الديني إبّان الفترة الاستعماريّة

تفطنت الحركة الإصلاحيّة[١] التي قادتها جمعية العلماء المسلمين إلى خطورة الوضع من جرّاء الإقصاء الممنهج، الذي مارسته الإدارة الاستعماريّة تجاه ثوابت الأمّة ومرجعيّاتها الإسلاميّة. وهذا ما تُبيّنُه المادة ٦٩من القانون الداخلي لجمعيّة العلماء المسلمين، والتي جاء فيها: «نبدأ بإصلاح العقيدة، والعقيدة الحقّة لها ميزانٌ دقيق، وهو الكتاب والسنّة، فإذا عرضنا كثرة عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة، فأيّ سبيلٍ نسلكه لتقويمها، إنْ اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلّة، فإنّ التأثير يكون قليلاً؛ لأنّ النفوس قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة، والفِطر قد فسدت بما لابَسَها من خرافاتٍ وأوهام. فالواجب إذًا أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات، بطرقٍ حكيمة تقرب من أذواق الناس، فإذا ماتت البدع والخرافات، وصَفَت الفِطر من ذلك الشوب، سَهُلَ تلقين العقيدة الصحيحة وتلقّتها النفوس بالقبول».

لم تتوقف الإدارة الفرنسيّة في دعايتها عن توظيف رجال الدين الموالين لها، حيث طلبت منهم إعطاء الشرعيّة الدينيّة، لمشاركة الجزائريين في الحرب الأولى إلى جانب فرنسا ضد الألمان، فكان بيان الجمعيّة الدينيّة الإسلاميّة بالعاصمة (سنة١٩١٤)، والذي جاء فيه ما يلي: «تدركون جيدًا أنّ تهوّر الألمان هو الذي أدّى إلى إشعال الحرب...وهم اليوم يهجمون على وطننا الأم فرنسا، لقد حطّموا وداسوا حقوق الإنسان...وفرنسا بالمقابل رمز العدالة والشهامة والحضارة والمدافعة عنها، قد خطت خطواتٍ هامةً في خدمة الإنسانيّة؛ ولذلك منحها الله مستعمراتٍ واسعة...إنّ مساعدتكم للفرنسيين واجبٌ عليكم، من باب حسن الجوار والمعاشرة، الذي ستدخلون به الجنة»[٢]. وبلغ الأمر ببعض الأئمّة الموالين للسلطة الاستعماريّة حدّ الدعوة من على منابر الجمعة بالنصر لفرنسا، واصفينا إيّاها بالأمّة الحامية، كما جاء على لسان مفتي قسنطينة آنذاك، لفقون زواوي: «إنّنا نحن المسلمون متّحدون مع الأمة الفرنسيّة في حربها؛ لأنّها حاميتنا، لنرفع أيدينا إلى السماء وندعو الله لينصر بلادنا الأم فرنسا»[٣].

---

١. نمت الحركة الإصلاحية في الجزائر وترعرعت تحت تأثير عاملين أساسيين: عامل داخلي نبع من صميم محنة المجتمع الجزائري الذي يرزح تحت نير الاستعمار، ويعاني ويلات التجهيل الممنهج. وعامل خارجي تمثّل في النهضة في المشرق وعودة الاتصال الفكري والثقافي بينه وبين المغرب عن طريق الصحافة والكتب والمجلات. للمزيد انظر: علي، مراد، الحركة الإصلاحيّة الإسلاميّة في الجزائر.

٢. بلحاج، ناصر، دور الدعاية العثمانية الألمانية في رفض التجنيد الإجباري بالجزائر والدعاية الفرنسيّة المضادّة خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، ص١٠.

٣. المصدر نفسه، ص١٠.

الجزائر بين كمّاشة الاستعمار والقابليّة للاستعمار

خلّفت السياسات الاستعماريّة في الجزائر آثارًا بالغةً على بنية المجتمع الجزائري، فرغم فشل محاولات الاستمالة التي توّختها إدارة المحتلّ لدمج الجزائريين وسلخهم من دينهم وهويّتهم، والتي استعملت فيها المدرسة والمستشفى والمعلم والطبيب ورجل الدين المزّيف، نظرًا لفارق الدين واللغة والهويّة بين المجتمعين. ورغم فشله هدفه في جعل الجزائر جزءًا لا يتجزّأ من فرنسا أرضًا ولغةً وثقافة.

إلّا أنّ المحتلّ كان يخطّط لما هو أبعد من لحظة دخوله للجزائر، فأخطر وترٍ عزف عليه المستعمِر- بعد كلّ السياسات التي عاث بواسطتها في تركيبة المجتمع الجزائري - يبقى وتر القابلية للاستعمار[١]؛ لأنّها عامل داخلي في نفوسنا، حيث نتقبل كلّ ما يطلقه المستعمِر علينا بدون وعي وإدراك منّا، فما يطلقه من مصطلحاتٍ ضدّنا نتقبلها ونرددها، على أساس أنّها من المسلّمات الصحيحة، وما يصفه لنا نعدّه صحيحًا وجيدًا، حيث نقيس أنفسنا بمقياسه، وذلك نتيجة الضعف في شخصيّتنا الفكريّة والنفسيّة، فالنظام الاستعماري لا يُمْكن إلّا من خلال نفي وجود الآخر، ومن خلال مُعامل القابليّة للاستعمار(colonisabilitè) التي تُعبّر عن الرضوخ الداخلي، وتشمل الصفات العقليّة والنفسيّة والاجتماعيّة التي تجعل المجتمع لا يستطيع مقاومة الاستعمار. فنحن نخدمه باستغلاله لما في أنفسنا من استعدادٍ لخدمته، فنفوسنا معلولة من باطنها، بها معوق داخلي يمسكها عن التقدّم، ونحطّ من قيمة أنفسنا بأنفسنا، فنحن مسخّرون لهم، بحيث أصبحنا أبواقًا يتحدّث من خلالها، وأقلامًا يكتب بها، ومسخّرين له بعلمه وجهلنا[٢]، فالاستعمار يراقب حركة الأفكار، فكلّ ما يمرّ في العالم الإسلامي من أفكار يهمه بصفةٍ خاصّة، بقدر ما يهمه البترول، بل أكثر من ذلك بكثيرٍ وهو يراقب حركتها باهتمامٍ بالغ[٣]، وله فلسفته الخاصّة التي تتمثّل في التخلّص من الأفكار التي تضايقه، وفي الانحراف بها عن مراميها، بتوجيهها خارج المدار الذي أراد أصحابها استبقاءها فيه.

---

١. -للمزيد حول أفكار مالك بن نبي: مسقاوي، عمر كامل، في صحبة مالك بن نبي مسار نحو البناء الجديد، ج١وج٢، دار الفكر المعاصر، لبنان. دار الفكر، دمشق،٢٠١٣.

٢. بن نبي، مالك، شروط النهضة، ص١٤٥.

٣. -في هذه النقطة يشير مالك بن نبي إلى سيكولوجيا الاستعمار من جهة، وتوظيفه لمخابر البحث في الدراسات الأنثروبولوجيّة والاستشراقيّة من جهة ثانية، فبواسطة هذه الآليات أصبح» عند الاستعمار معلومات عنا، أكثر بكثيرٍ مما عندنا عنه. فهو على علم بأننا تجاهه ننفعل ولا نفعل؛ ولذلك صار يعاملنا على هذا الأساس. وتركنا غرقى في مشاكل تَخلّص هو منها منذ زمن. للمزيد انظر: بن نبي، مالك، من اجل التغيير، ص٩٩ وما بعدها.

وما يؤسف له - حسب تعبير البشير الإبراهيمي- هو ذلك الركون والمرض العضال الذي أصاب الأمة، فاستكانت ورضخت، وكأنّ القدر محتوم، فمن خلال استعراضه لحالة العالم الإسلامي توصّل الشيخ إلى نتيجةٍ مفادها أنّ» العلة واحدة والأحوال متشابهة، جمود وخمود وركود، جمود في فهم الحياة، وخمودٍ في القوى السائقة إلى الحياة. وتجردنا جميعًا من فضائل الشجاعة والغيرة على الحمى، والحفاظ والغضب للعرض وحماية الحقيقة، ورضانا جميعًا بالذل والضيم والمهانة والتعبّد للأجنبي»[١].

وما لم يحدث التحرّر الثقافي من العوائق النفسيّة التي كبلت الفرد، فإنّه لا جدوى من الدفع بالبرامج والمشاريع الاقتصاديّة للواجهة؛ لأنّ «شعوبنا التي تعيش نتائج صدمةٍ ثقافيّةٍ تحرمها من حريّة التصرّف في أكثر من ميدان...يجب عليها أنْ تكتشف قدرتها الحقيقيّة، التي لا توجد على محور القدرة الماليّة، ولكن على محور القدرة الاجتماعيّة، وطالما لم تقم البلدان المعنية بهذه الخطوة من أجل تحرّرها النفس الثقافي، فإنّ تحرّرها الاقتصادي يصعب أو يستحيل»[٢].

إنّ محو الاستعمار من النفوس التي استكانت أخطر وأصعب من إخراجه من الأوطان، ورغم هذا تبقى عمليّةً ممكنةً ومطلوبة، تتطلب خلق إنسانٍ جديدٍ ينفلت من ربقة النظام الاستعماري، الذي كبّله لقرون، وجعله يرى كلّ تحرّرٍ ضربًا من المستحيل، وأوّل شرطٍ لمحو الاستعمار يتطلّب تغيير الوجود تغييرًا جذريًّا، يحوّل المتفرجين إلى أناسٍ فاعلين، يؤمنون بعدالة قضيّتهم وجدواها، يرفضون كلّ ما لحق بهم من صفات التحقير والدونية واللامدنية واللا أخلاق، التي الصقها بهم المستعمِر، في إطار منظومته الاستعماريّة التي سعى من خلالها لخلق حالةٍ من اللامقاومة والشعور بالدونية.

١. بشير، فايد، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ١٠٠١٤- ١٠١.

٢. بن نبي، مالك، بين الرشاد والتيه، ص١٦٨.

المصادر والمراجع

١. أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، دار الأمة، الجزائر، ط٢، ١٩٩٧.

٢. أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطور وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، ٢٠٠٧.

٣. الأشرف، مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة: حنفي بن عيسى، ٢٠١١.

٤. الأشرف، مصطفى، الجزائر الأمة والمجتمع، ترجمة، حنفي بن عيسى، دار القصبة للنشر، الجزائر، د.ط، ٢٠٠٧.

٥. بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٥٤)، ج١، دار المعرفة، الجزائر، د.ط، ٢٠٠٦.

٦. بشير فايد، قضايا العرب والمسلمين في آثار الشيخ البشير الإبراهيمي والأمير شكيب أرسلان. دراسة تاريخية وفكرية مقارنة، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد الكريم بوصفصاف، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعيّة، قسم التاريخ والآثار، جامعة منتوري، قسنطينة، ٢٠٠٩-٢٠١٠.

٧. بقطاش، خديجة. (١٩٩٢). الحركة التبشيريّة الفرنسيّة في الجزائر (١٨٣٠-١٨٧١). الجزائر، مطبعة دحلب.

٨. بلحاج، ناصر، دور الدعاية العثمانية الألمانية في رفض التجنيد الإجباري بالجزائر والدعاية الفرنسيّة المضادة خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، مج١، ع١. ٢٠٠٨.

٩. بوشيخي، شيخ، الحركة الوطنية والثورة الجزائريّة (١٩٥٤-١٩٦٢)، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، ٢٠١٨.

١٠. بوعزيز، يحيى، المرأة الجزائريّة، وحركة الإصلاح النسويّة العربيّة، دار الهدى، الجزائر، ٢٠٠١.

١١. بينارد، شيريل، الإسلام الديمقراطي المدني، تنوير للنشر والإعلام، ترجمة إبراهيم عوض، ٢٠١٣.

١٢. جان.بول. سارتر، الاستعمار الجديد، ترجمة، عايدة وسهيل إدريس، منشورات دار الآداب، بيروت، ط٢، ١٩٦٦.

١٣.جبري، عمر عواج حكيم، أثر السياسة الاستيطانيّة في تفكيك المجتمع الجزائري، مجلة تاريخ المغرب العربي، ع١، مج٦، ٢٠٢٠.

١٤.الحاكم بن عون، محمد، المسألة الدينيّة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي (١٨٣٠-١٩٥٤)، أطروحة دكتوراة، ٢٠١٩م.

١٥.حباسي، شاوش، مظاهر الروح الصليبيّة للاستعمار الفرنسي بالجزائر (١٨٣٠-١٩٦٢)، دار هومة، الجزائر، د.ط. د.س، ٢٠٠٥م.

١٦.الحصري، ساطع، آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة.

١٧.دوتوكفيل، نصوص عن الجزائر، ترجمة، إبراهيم صحراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٨.

١٨.سعيدوني، ناصر الدين، المسألة البربرية في الجزائر، عالم الفكر، ع٤، مجلد٣٢، ٢٠٠٤.

١٩.سعيدوني، ناصر الدين، بوعبدلي، المهدي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٤.

٢٠.صافر فتيحة، التحولات الاجتماعيّة التي عرفتها الجزائر بعد مئة عام من الاحتلال الفرنسي. ضمن الكتاب الجماعي (التحولات الاجتماعيّة والثقافيّة في الجزائر من منظور العلوم الاجتماعيّة)، جامعة معسكر، د.ط.

٢١.صالح فركوس، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، منشورات جامعة قالمة، ٢٠١٠.

٢٢.عبد الحميد زوز، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (١٨٣٠-١٩٠٠)، المؤسّسة الوطنيّة للفنون المطبعية، الجزائر، ٢٠١٠.

٢٣.عماد لبيد، المحاولات الفرنسيّة لطمس الهويّة الجزائريّة إبّان الاحتلال (١٨٣٠-١٩٦٢)، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج٣، ع٦، ٢٠١٥.

٢٤.فرانز فانون، معذبو الأرض، تقديم جون بول سارتر، ترجمة، جمال أتاسي وسامي الدروبي، د.ط.

٢٥.فرسوني، فراس، الفكر التحرري عند ابن باديس وأثره في استقلال الجزائر، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب والعلوم، ٢٠٠٩م.

٢٦.الفكون، عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادّعي الولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، مقدمة الكتاب.

٢٧.المركز الوطني للدراسات، كفاح المرأة الجزائريّة، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة، وزارة المجاهدين، ط٢، ٢٠٠٧.

٢٨.لوشاتليه، ألفريد، الغارة على العالم الإسلامي، ترجمة، مساعد اليافي ومحي الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، السعودية، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٢٩.مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢.

٣٠.مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين وعمر المستكاوي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، (ب، ط)،١٩٧٩.

٣١.مالك بن نبي، من اجل التغيير، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥.

٣٢.مجدي، فارح، مقالة بعنوان (الحرية والتمدن في فكر فرنسيس مراش)، العدد٢٣٢، ٢٠١٢م.

٣٣.معاليقي، منذر، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار اقرأ، بيروت، د.ط.

٣٤.موليراس، أوغسيت، المغرب المجهول، ترجمة، عزالدين الخطّابي، دار النجاح الجديدة، ط٢٠٠٧.

٣٥.الميداني، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير - الاستِشراق - الاستعمار، دراسة وتحليل وتوجيه (ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، ٢٠٠٥.

٣٦.نصري، أحمد، آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن، دراسة نقدية، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب، ط١، ٢٠٠٩.

37. Feriel Lalami, L'enjeu du statut des femmes durant la période coloniale en Algérie, Nouvelles Questions Féministes 2008/3 (Vol. 27),

38. G. Yver, Méthodes et institutions de colonisation : les bureaux arabes, Annales. Economies, sociétés, civilisations. 10e année, N. 4, 1955.